ذواتٌ مُهمَلة

فضْـــح المكبـــوت

وكشْـــف المحتجـــب

محمد إسماعيل

اسم الكتـــاب : ذوات مهمـلـــة

تـأليـــــــف : محمد إسماعيـــل

تصميم الغلاف : فارس إيهـــاب

مراجعة لغوية : أسماء أبو المجـد

إخـــراج فنـــي : هيـــام فهيـــم

رقـــم الإيـــداع : 2020 /14993

الترقيم، الدولي : 978-977-85749-0-6

الناشـــــــر : اسكرايب للنشر والتوزيع

002 01005079256

Scribe20199@gmail.com

اسكرايب للنشر والتوزيع – scribe2019

اسكرايب للنشر والتوزيع – scribe2019

جمهورية مصر العربية

حقوق الطبع والنشر محفوظة ©

لدار اسكرايب للنشر والتوزيع

لا يحق لأي جهة طبع أو نسخ أو بيع هذه المادة
بأي شكل من الأشكال
ومن يفعل ذلك يعرض نفسه للمساءلة القانونية

تمهيـــد

هـذا الـنص محاولـةٌ منـي لنـبش الـذاكرة، ومغازلـة الوجـدان، وتحريـك العقـل بتسليط ضوء خفيف على بعض المناطق المظلمة أو خافتة الضوء فيه.

لـم أنطلـق مـن نـص محـدد، ولا تربطنـي أحـداثٌ ببعضـها، ولكـن طريقتـي هـي الاستطراد؛ ستجد تناثرًا وتبعثرًا لبعض الموضوعات التي تحكي واقعًا مُعاشًا، فالترتيـب والسـرد المتسلسـل ليس سـمةً فـي هـذا الـنص كعـادتي فـي نصـوص روائيـة أخـرى، لأن النـبش فـي العقـل وخبايـا الـنفس يسـتلزم شـيئًا مـن الفوضـى والعفوية والتلقائيـة –أحيانًـا– أتمنـى أن يكـون الأسـلوب ماتعًـا، والأفكـار التـي أشير إليها مفيدةً.

إن الـنص الأدبـي نتـاجٌ لفِكـر كاتبـه ومـا يـدور بعقلـه ووجدانـه ومـا تـأثر بـه فـي حياتـه مـن الطفولـة حتـى وقـت كتابتـه الـنص، وربمـا نتيجـةٌ لموقـفٍ مـا، أو حـدث أو علاقـة مـا؛ فنُخرِج ذاك المكبـوت المحجتـب مـن أعمـاق الـنفس والوجـدان لنتحلـل مـن عبثيتـه المسـتبدة المزعجـة وليسـتفيد منهـا القـارىء ولـو بالمواسـاة بـأن يجـد لـه شـبيهًا فـي هـذا العـالم يعبـر عمـا بداخلـه، ويقول ما لم يستطع قوله بنفسه ليترك عنده نفس الأثر، أثر التحرر من العبثية المكبوتـة للشـعور باللـذة والراحـة؛ ذاك الشـعور النـاتج عـن زوال ألـم دفْنهـا بالداخل قبل أن تنطلق كشبح إلى الخارج لتعبر عن الألم بما هو أقسى منه.

المؤلف

"نحن لا نشبه أنفسنا في كل الظروف...
وكل واحدٍ منّا هو أشخاص مختلفون..
في ظروف مختلفة."

بول أوستر

الفصل الأول
معاندة الحظ

وكأنني خرجت من بطن أمي إلى هذا العالم كي أنتظر، أنتظر كل شيء؛ الحب، المحبوبة، الصديق الوفي، الراحة، المال، الفرصة، الحظ، كلَّ شيء... لكني ما وجدت حين اصطدمت بالواقع سوى الغربة، الوحدة، الشجن، الحزن، الفقر، البؤس، وعجز الروح، ومعاندة الحظ وابتعاده عني... حياتي قضيتها على رصيف الأمل مفتقرًا إلى فضيلة الصبر، بعدما أيقنتُ أن الحظ يعاملني كزوج أمي أو كزوج أمِه القاسي!

ألقَتني الحياة في زحام أحداثها كشخصيةٍ في رواية لا ملامح لها، أُقحِمتُ في الأحداث عَنوةً على الرغم من أن حذفي منها لا يؤثر في أحداثها. يُحزنني الكاتب وقتما يشاء ويفرحني، يجعلني شريرًا وقتما يشاء ويفضحني، وربما جعل مني قدوةً لأشخاص ثانويين وهامشيين مثلي، وكلنا في النهاية لا نملك حلَ عقدة مشكلة وجودنا، إنما نحن أشخاصًا لتسلية القارىء فقط كفاصل إعلاني داخل الرواية أو استراحة قليلة لأشخاص حقيقيين. فهل من حقنا أن نسأل سؤالًا وجوديًا أم أن قذائف الألسنة على أُهْبة الاستعداد للقصف نحو هُويتنا؟!

أصحاب الذوات المُهمَلة كثيرون في هذا العالم، يعيشون كل أنواع الإهمال والتهميش، وإن بلغ اليأس ذروته عند بعضهم يواسي نفسه بقوله متنهدًا: "لا بد لليل أن ينجلي ويأتي الفرج، ولا بد للظلم أن ينتهي".

****

مرحبًا بكم، ها أنا أتحدث إليكم ونسيت أن أعرفكم نفسي، أنا سعيد، لا أقصد وصف نفسي بأنني سعيد، ولكنني أخبركم أن ذلك هو اسمي (سعيد) على الرغم من أنني ليس لي من الاسم نصيبٌ كابن خالتي (جميل) يقولون له أنت يا جميل، اسم على مُسمى: أي جميل الاسم والصفة، بينما أنا سعيد الاسم، تعيس في الحقيقة.

ليس هناك أسوأ حظًا من هذا الشخص الذي لا يلقى حظه رغم عنائه وتعبه في الحياة لأجل أن يعثر على أي شيء، ولو القليل من الحظ!

ما أبأس من ذلك الذي تتحكم فيه عاطفته القوية، ليست عاطفة الحب فقط، وإنما القلق والخوف ومشاعر العطف على الضعفاء والتماهي في الشعور بضعفهم وعذابهم، والاستغراق في تفاصيل حياتهم والسعي إلى مواساتهم؛ فتَضيع حياته هو كأنه قد خُلق للناس ونسي أن يعيش!

أعتقد أن هذا الصنف من الناس حَري به ألا يجد حظًا، وجديرٌ به أن يعيش بائسًا ويموت غريبًا حين يجد الحظ يهبط في حِجر من لا يبحث عنه كثيرًا، وتجد أحدَهم متكاسلًا لا يفكر ولا يحمل هَم شيء، ولو كان لديه فكر فلا يكون إلا أسوأ فكرًا غالبًا، ولعل النظرة الفردية والأنانية الظاهرة في حياتهم هي ما جعلت الحظ مَلويّ العنق تحت أقدامهم حتى لو لم يكن لديهم ملَكات ومواهب، ولوكان عندهم موهبة ترى الواحد منهم يستغلها لأجل نظرته الفردية وأنانيته. يختار الحظ أمثال هؤلاء –غالبًا– ليطمئن في حجورهم؛ كأصحاب رؤوس الأموال والتجار من رجال الأعمال، والعوام الطَّغام أشباه الأنعام، الذين يستغلون كل شيء لأجل مكاسبهم وأرباحهم بلا أدنى شعور بالرحمة، أما صاحب القيم والرسالة الذي يحمل هَمَّ الكرة الأرضية فوق رأسه لا تراه إلا فقيرًا يبحث عن لقمة عيش بحد الكفاف

في شق جبل مرتفع يصعب تسلقه أو صعوده حتى يقع في يديه من الرزق ما يقضي به يومَه؛ فلا بد أن يسيل عرقه أنهارًا مدرارًا حتى يُسمع صوت عظامه. ومن العجيب أن ترى مجتمعًا يعج بالجهل؛ يجعل من الحمقى والأغبياء أصحاب حظوة وشهرة، يلتفون حولهم، يهللون ويصفقون بحرارة حال ظهورهم، يتمسّحون فيهم كأنهم يتبركون بأوليائهم، يلتقطون معهم صورًا للذكرى والتباهي، بينما يجد الصالحون والمفكرون وأهل القيم أنفسهم مخيرين بين شيئين، كلاهما مُر:

إما أن ينضموا إلى دفء الجموع وينخرطوا بينهم ليحظوا بما ينالون، وإما أن يعيشوا مع أنفسهم في عزلةٍ وانفراد.

وهنا يجد نفسه غريبًا لا وطن له فيهرب مضطرًا من واقعه ليعيش في مخيّلته وعالمه الخاص، ويبني لنفسه وطنًا ومجتمعًا بصورة تشبهه، تلك الصورة التي تمناها واقعًا لكنه أصبح يعيشها في عالم افتراضي كسجنه الأبدي، عالم يقبع في خياله كجسد لا روح فيه بعدما انطفأت روحُه وتلاشت حتى صار جسده كالرماد بعد احتراقه، كسيجارة أُشعلت إلى أن فُنيت وداستها الأقدام. ذلك الغريب الذي لا هو مع الناس ولا يستطيع أن يفعل لنفسه ما يريد، لا يستطيع أن يكون كما يتمنى لأسباب متعددة؛ أهمها: هو ذاك المجتمع بنفس الصبغة وتلك الصورة المقززة؛ نور وظلام، وبينهما برزخ خاص بهؤلاء الغرباء.

يخرجون من مجتمعاتهم بل من أنفسهم وأجسادهم فارين إلى وجهة واحدة وهي الخيال؛ الخيال وطن من لا وطن واقعي له، يحسبهم البعض أنهم زاهدون، يسمونهم الزهاد على الرغم من أنهم لم يزهدوا إلا في الواقع، بينما هم –في الأصل– يحبون أن يعيشوا كل حياة جميلة.

نعم، هناك زهدٌ محمودٌ نعْلَمه ونَعلَم فضيلته، وهو الزهد فيما يأسِرك ويُفقدك حريتك لتكون عبدًا مقيدًا به كالزهد في الغريزة والشهوة لتكون حرًا، وكما قالوا: "من ترك شهواته عاش حرًا".

هذا الزهد محمودٌ بالطبع؛ حيث الإعلاء والتسامي، بينما الزهد المذموم هو أن تزهد في ذاتك، تزهد في الأنا وتزهد في الوجود لتجد نفسك زاهدًا جبْرًا كمن فقد عقله وانقطع عن عالمه الخارجي، وهذا ما يجعل البعض من أصحاب القيم والمبدأ العظيم في عزلة دائمة، خصوصًا بعد شوطٍ طويل من الحياة ربما يُنهيهم إلى مصحات نفسية، وربما يلجئون إلى الفناء بقتل أنفسهم كي يفروا من عالمهم الذي يرفضونه ولم يقدروا على تغييره أو التعايش معه. إن أخطر ما قد تمر به هو أن تكون صاحب علم ووعي ومعرفة في مجتمعٍ يكون الجهل فيه منهج حياة، واتجاهًا ومسلكًا؛ تشعر وكأنك تعيش في قرية نائية مليئة بالجاموس والحمير والدواب، ولكلٍ منها صوتٌ صاخب يُخفي صوتَ العقل والحكمة، ولك أن تتخيل لو أنك وحدك صاحب اللغة والعقل بين بهائم الدنيا! هل سيظهر لك قيمةٌ عندهم مهما تكن قيمتك بداخل نفسك؟

أجيبوني، بل سيأتي عليك وقتٌ تتمنى فيه لو كنتَ حمارًا حتى تكون مثلهم في طريقة عيشهم مع القطيع، لكن هل تستطيع فعل ذلك؟

هل تستطيع أن تجعل نفسك حمارًا حقيقيًا له ذيل أو جاموسة لها قرون كي يكون لك نفس خصائصهم؛ تشبههم ويعترفون بك ويفهمونك وتفهمهم؟

المسألة ليست في التغافل أو القرار بترك أي قيمة، وليس الأمر بتلك السهولة بل كما ذكرت لك هو بمثابة المثال السابق، أن تتمرد على كونك إنسانًا قائم الجسد، له عقل ولغة، وأن تجعل نفسك بهيمةً.

لستُ مبالغًا في ذلك، ولك أن تجرب إن لم تصدق..
جرّب –مرةً– أن تعيش حياةً تراها عبثيةً دون جدوى، وأنت لا ترى نفسك وحدك بل تراك المجتمع، تراك معنيًّا بخلق حياة لائقة وعميقة دون سطحيةٍ تافهة، ربما تظنني مختلًا نفسيًا أو عقليًا أو متطرفًا فكريًا حين أفكر هكذا!
لكن لا عليك، ألم أقل لك "غُربَة"؟
أراك تشعر بالضجر من كلماتي وأنا حتى الآن أحاول أن أحدثك وأُفرغ لك ما بداخلي، فما بالك إن قلت لك هَيا يا صديقي، انضم إلى الفريق، فريق الغرباء، فريق الذوات المُهمَلة؟
أعطني –من فضلك– كوب ماء كي أتجرع حَبة تفاؤل، وأقول في نفسي ربما يأتي وقتٌ ترتفع فيه القيم والمعاني والأفكار؛ الأفكار يا صديقي، هي كهرباء الجسم والمخيّلة حتى يضيء العقل والوجدان لتنتعش الروح وتحيا حياةً طيبةً هانئةً. هناك إضاءةٌ قويةٌ وأخرى ضعيفة، وبينهما نسبٌ متفاوتة حسب الأفكار ومدى قوتها وحجتها وقربها إلى الحقيقة..
الأفكار هي الدليل والقائد؛ بها تفسر الأشياء والموجودات، وبناءً على ذلك تتكون لديك المفاهيم الخاصة والقناعات التي تجعلك صاحب نمط وطريقة، تلك الطريقة هي الظاهرة في سلوكك وتصرفك..
فلك أن تتخيل كيف يعيش شخصٌ بالوجدان فقط أو بالخيال فقط أو بالجسم فقط ويمشي بين الناس، ويأكل ويشرب، ويقضي شهوته فحسب..
ثمة خلل يحدث لا محالة؛ فأهم شيء أن يكون لك فكر، ولكن هل تعرف كيف يكون لك فكر؟ ومن أين يأتي؟
وهل كل فكر يُكوّنه أحدهم ويحصل عليه يكون فكرًا حرًا أو سليمًا؟

هنا يكمن جوهر العلم النافع والمعرفة والتأمل؛ التأمل والتفكر هو ما يتسرب من خلاله الجوهر إلى مخيّلتك ليمر بمراحل كي يخرج واقعًا في عالمك، ولكن –للأسف الشديد– الناس في هذا الزمان وحوشٌ خُلقت لتلتهم الجوهر والمضمون، ويتناولون السطحية والقشور، وما أشد عليك يا صديقي إن كنتَ بمدركاتك العقلية والنفسية الشاسعة ترى كل شيء على الرغم من أنك لا تستطيع فعل أي شيء أو الحصول على أقل شيء!

فكيف تحاول أن تخلق معنًى لِما لا معنى له بالمنطق؟

وكيف يكون المنطق –على الرغم من أنه هدفٌ للإدراك– وسيلةً لإعطاء الفوضى قيمة التنظيم أو مبررًا لحياة عبثية، لا شك أنه منطق اللامنطقيين ونظام الفوضويين الذين لديهم قاموسٌ من الألفاظ يستخدمونها كثيرًا في حواراتهم وخطاباتهم، يظنون أنها لغة، لكن في الحقيقة لا تحوي معنًى واضحًا؛ إذ لا علاقة لها بمعاني الإنسانية، وبعيدةٌ كل البعد عن أي حق طبيعي للإنسان، وعلى الرغم من ذلك يعطونها قيمةً وجوديةً باعتقادهم أنهم يتكلمون أفضل اللغات!

تعال يا صديقي، نتجه إلى الحديث عن الفلسفة ونجعله حكايةً جميلةً كالشعر...

هل تصدقني يا صديقي لو قلت لك أنني ما شعرت بالسعادة المزعومة، إنني ما عرفت الدفء الحقيقي في أي علاقة أيًا كانت!

أظن أن السعادة شيء (ميتافيزيقي) فحسب، وما نقصده نحن من السعادة هو شعورنا بالراحة في وقتٍ ما وإلا فلا سعادة مطلقة يحصل عليها المرء، فمن الممكن أن تسعد بشيء واحد كأن تكون غنيًا لكنك لست سعيدًا في شيء آخر كأن تكون محرومًا من الإنجاب، والأشياء كثيرة مُرتبة في قوائم

الناس حسب أولوياتهم في الحياة ومطالبهم. ولك أن تعلم أنه من الممكن أن تحقق المطلوب الجالب للراحة إلا أن افتقادك شيئًا واحدًا كفيلٌ بأن يهدم شعورك بتلك الراحة في كل شيء، ولذلك السعادة كلمة جامعة لكل معاني الراحة والمتعة واللذة، وبالكاد لا يحققها أحدنا في كل شيء، لذلك أسميها الراحة لا السعادة؛ فالسعادة أعم.

وحسب أفكار الناس وأولوياتهم وحاجاتهم يجعلون لهم هدفًا جالبًا لتلك الراحة أو السعادة سواء في المال أو النساء أو العمل أو النجاحات العلمية والعملية...

أما بالنسبة لي فما شعرت بمتعةٍ وراحة بالٍ أشد مما كنت فيه في حقبة زمنية بسيطة دون خمس سنوات، حين كنت أعشق امرأةً؛ تلك المرأة هي الوحيدة التي استطاعت أن تُخرجني من ذاتي وتجعلني كالثائر على قناعاتي القديمة كلها، فحين كنت أراها أذوب كما يذوب الليل بطلوع النهار. كنت رجلًا؛ إذ كنت أشعر بأنوثتها، وهنا وجدت الجوهر في معرفة معنى الرجولة، وفسرته على أنه منتهى المعرفة للمرأة وإدراك كينونتها رغم أن فهم المرأة ليس أمرًا يسيرًا بل قد يصل إلى صعوبة بالغة جدًا لأنك على قدر اكتشافك وفهمك لها سيجعلك ترى –بمنتهى الوضوح– الخط الفاصل بين رجولتك وأنوثتها بل هو الخط الفاصل بين مفهوم الرجل ومفهوم الأنثى عمومًا؛ لا ينبغي لك بكونك رجلًا أن تتجاوزه لتصل منطقة الأنوثة ولا ينبغي لها أيضًا تجاوزه لتصل منطقة كالحد الطبيعي بين هرمونات الذكورة والأنوثة في جسم كل منا الذي يشبه الحدود بين الدول؛ تكون في أمان ما دمت لم تتعدَ حدود الآخر.

وهنا يكون الرجل رجلًا والمرأة امرأةً وهذا هو الطبيعي، لكن غير الطبيعي في الأمر هو أنني اقتربت كثيرًا حتى تجاوزت خط الرجولة مشدوهًا وَلهًا بها حين قفزتْ إلى منطقتي فكانت داخل دائرة الرجولة وتاهت فينا كينونتنا واتحدت وتوحدت، وظن كلٌّ منّا أنه هو الآخر حتى فقد كل منّا ذاته في الآخر، وفقدنا السيطرة على قيادة الأنا.

ما عاد لدينا مفهومٌ للأنا والهُوَ؛ كلانا أنا، وكلانا ينظر بعضنا إلى بعض كنظرة أحدنا إلى نفسه من الخارج، يعرف سوءتها وفضيلتها، ويعرف نقاط ضعفها وقوتها.

كانت رغبتي جامحةً للتخطي والتجاوز الدائم لكل شيء معها، وكان يغيظني جدًا أي عائق أو مُعطّل حتى تمردتُ على بعض المسَلَّمات، لمَ هي مسَلَّماتٌ أصلًا؟!

وكأنني أردت إعادة فلسفة الحياة لتتلاءم مع حالنا ولو بتحطيم العادات والتقاليد، وانصهار اللغات كلها بين شفاهنا الساخنة الملتهبة، ولو أن أطأ بقدمي عنق الجمال لأعلن عن الجمال الحقيقي الكامن فيما أشعره من لذة الوجد والعشق والهيام!

أن تكون عاشقًا للجمال، مقدرًا لكل تفاصيله ومقاييسه، أن تغوص فيه بلا سطحية، أن تحب الشكل والجوهر، أن ترى عينين زرقاوين أو بنيّتين أو سوداوين لا يهم، الأهم أن تكون تلك العينان بحرًا عميقًا يسعك للغوص والغرق، أن تعشق سمراء أو شقراء أو بيضاء لا يهم، المهم أن تكون لك ساحلًا بلا حدود ولا شواطىء، أن تكون كوكبك الخاص به تضاريسك الخاصة تعلو وتهبط بحريّة، تسلك طرق جغرافيتها المستقيمة والدائرية بحريّة، تحترق في لهيب صحرائها، تغتسل في مياه بحارها،

تشم عبير بستانها، أن تكون سجينًا للأبد في سجنها لِتخُط على جدرانه كل القصائد الغزليّة والقصص والروايات التي تكتبها كقربان تقدمه تحت قدميها.. لذلك كلما مر الزمن يتجدد عندي شعوري الرهيب بالرغبة في الانفتاح على كل أفكار مطلقة، وحريات لا حدود لها كمن كفر بعد إيمان وشك في كل شيء حتى في وجوده هو بفلسفة عدميّة ديكارتيّة..

كنت حين أنظر إلى عينيها أشعر بانسجام رهيب، أرى عالمًا غير العالم، عالمًا مطلقًا غير محدود يأخذني بمخيلتي عبر فضاءاته الواسعة اللامحدودة، ويصبح للأصوات صدًى يترنم حولنا وأنا أقرأ لها:

كأنك في الشمس ما لا يُرى
كأنك في الورد ما لا يُشم
كأنك كنت كأن لم تكن
ونازع فيك الوجودَ العدم...

الوجد يأسرني، علاقتي باللغة علاقة صوفي بسيده، يتعبد إليه على سجادة قشيّة في حقل على شاطئ النهر..

أستأنف القصيدة:

أيا حارس الوحي والانتظار تأهّب؛
فميقاتك اليوم تم،
ستُبعث وحدَك من موتك المستحيل
لتصعد وحدك هذا الألم.

قاطعتني:

– "أيُّ ألم يا سعيد وأنا بجوارك؟ هل ما زلت تحمل حزنًا داخلك كشاعر يعيش الحزن لذاته؟"

قلتُ: "الألم في كل شيء يا غالية، حتى في الحب والوجد، ألم لذيذ مغصوبٌ علينا كالحب بلا اختيار، لذة المرأة ونشوتها في الجنس ناتج عن ألم لكنه لذيذ، كما يحك أحدنا موضعًا في جسده ويشعر براحة ولذة مع أنه يحك جلده بأظافره.."

أستأنف القصيدة:

ستُبعث وحدك من موتك المستحيل
لتصعد وحدك هذا الألم.
ستصعد، وتصعد حتى تغيب
وتهبط حتى كأنك لم..

كم أحببت قصائد الشاعر السوداني "محمد عبد الباري"!

كنت أحب تلاوتها على مسامعها في كل مرة نعانق الليل معًا وقت السمَر، أكشف لها المعاني الغامضة كشيء من المفاكهة والتسلية...

قالت بعذوبة وغنج:

– قل لي قصيدةً أخرى يا سعيد.

تبسمتُ وتلوْت لها:

تَهُبين كالتعب النبوي
ملألأة بالوضوح الخفي
يسميك وقتك ما لا يذاق
يسميكِ من ذاق لم يكتفِ
أسميكِ نهر الهواء الغريب
لأني عرفتُ ولم أعرفِ
أيا امرأة اللحظات الثلاثة

تجليتِ قبلُ وبعدُ وفي
لوجهك متقدٌ من الجبال
يشق الدروب ولا أقتفي
تشديننني من جراحي فأدنو إليك
ولا جرح إلا شُفِي...

قالت: "ما أجمل المعاني على الرغم من أن هناك ما لا أفهمه بوضوح، لكنّ إلقاءك يخبرني بالمعنى وما بداخلك، قد جردت القصيدة من لغتها لتحل مكانها شفرات بيني وبينك لا يفهمها سوانا"..

نضحك ونلهو، ونلعب كالأطفال، لكنّ جزءًا من طفولتي ما زال غائمًا، يتسلل ضوء الشعور بالحب ليضيء ذاك المكان المظلم لكنه لم يلبث إلا احتضر كما يحتضر قنديل زيت نفد وقوده ليرتعش بظلاله الضخمة على الجدران ثم يموت..

أشد ما كان يضيء تلك المنطقة المظلمة من نفسي شيئان:

حين يهطل المطر وأنا جالسٌ بالمقهى مع الدفء وحيدًا، وحين أكون بين فخذيها الأبيضين مع العسل المصفى والخمر العتيق...

كنت جائعًا منذ الطفولة والمراهقة، لذا محضت حياتي كلها في الورود، في مناهلها العذبة لأرتوي، كنت أخشى الظمأ القاتل بعدما اعتدت ماءها الصافي، وأحب أن أكتشف فيها ما يغيب عني في أعماق عينها وخباياها التي لا تنتهي... المتعة في اكتشاف جسد امرأة، ولا سيما لو كان أول مرة كأنك تكتشف قارةً جديدةً أو كوكبًا جديدًا أو عالمًا موازيًا في الحضارة!

تخلع عنك قطع الثياب، ومع كل قطعةٍ تخلع صخرةً من ألم قديم مكبوت، وتزول معاني الكآبة كلُها كأن ليس لها وجود بل يمتد زوالها إلى ساعات بعد الانتهاء لتعيش في (فنتازيا) تحيطك بفقاعةٍ من النشوة.

شفاهك يا سيدتي، حبات كرز ناضجة، كلما رأيتها أردت اقتطافها بفمي لأمضغها دفعةً واحدةً...

تضحك في عنجٍ وتقول:

– هي لك بل كل المزرعة يا سعيد..

نعم سعيد، الحظ لك.

تعلمين أنها أول مرة شعرت فيها بمعنى اسمي.

لقد تحولت في تلك الساعة مزارعًا أقلع وأغرس وأرمي البذور..

لكل منّا أمنيات متعددة، ولكن أن تنحصر كل أمنياتك في امرأة واحدة!

هنا ياعزيزي، إما أن تكون على موعد مع السعادة المطلقة، السعادة (الميتافيزيقية) أو والعياذ بالله فأنت تقترب لنهاية أجلِك حرفيًا..

وعلى الرغم من تلك المشاعر المتأججة، أجارك الله حين كنا نختلف في شيءٍ ما؛ تكون حماقاتنا المستعرة، تُعلن مرحلة البدء بعِدة علامات كنت أحفظها جيدًا: السكوت الطويل حتى أشعر بالملل، أو أن تطرق باب حجرتك بعنف حين دخولها، وإن فشلتْ في ذلك تلقي بعض قذائفها التي تحتاج بعدها إلى أن تتوضأ وتتمضمض بكحول من سوء كلامها.

أنا أعترف أني عاقلٌ جدًا ورصين حين أتكلم بالعقل، ولكني إذا محضت عاطفتي معها وغلبني الانفعال والغضب الشديد أنسى نفسي؛ لا أستطيع وقتها أن أفرّق بين هدوئي وغضبي، وبين عصبيتي وجناني، وبين طيبتي وحناني، لا أستطيع أن أفرق بين لوعتي وشوقي.

– لماذا تتعمدين مخالفتي؟

أسألها وأنا متماسك وأكتم غيظي.

– أنتَ لا تستطيع التفاهم، أنت شخصيتان مختلفتان تمامًا يا سعيد، ولا ألبث أن أفرح بك إلا تحزنني!

– لماذا ترفعين صوتك أمامي؟

أسألها وأنا متجاهل جملتها السابقة.

– لا أرفع صوتي لإهانتك، بل لأنك شديد الغضب وكلماتك لاذعة ولا أتحملها..

– لا تتحملي، على راحتك، كان الأسهل أن تسكتي دون رد على ما أقول. قاطعتني..

– ولماذا تتعمد مخالفتي وأنا أسعى إلى إرضائك، وأتحسس النافع لك في كل شيء؟

– أتزعمين أنك تفهمين أكثر مني وأنني معاقٌ ذهنيًا وفاقدٌ الأهلية حتى تختاري لي وتلزميننني به؟!

وتظل خلافتنا هكذا حتى نُخرج ما بداخلنا من سفاهات وحماقات وغضب لتتفاقم المشاجرة، وبعد أن يتوقف القتال تبكي بحرقة لتوجعني بدموعها إذا فشلَت أن تصيبني بكبريائها، وتدلف إلى حجرتها وتغلق الباب من الداخل، لا أجد شيئًا أفعله إلا أن أشعل سيجارتي وأدخنها بعنف؛ فالتدخين عندنا له دوافع ومذاقات وطرائق مختلفة، أحاول التنصت لصوت نشيجها وبكائها فيرتد صداه في قلبي كالسيف. خطوات أخطوها بعشوائية هنا وهناك؛ أجلس لأنهض واقفًا، وأقف لأتحول إلى كرسي آخر، لماذا التردد في التعبير عما نشعر به غالبًا؟

أتساءل، لماذا نفكر في رد فعل الآخرين واحتمال سوء الفهم؟

لماذا يشغلنا عن التعبير عما بداخلنا قبول الآخر لذلك التعبير الصادق؟

هل سيفهمه على الوجه الصحيح أم هل سيستغل ذلك؟

الفوضى سيدة الموقف. حتى الفوضى سيدة!

ألعن الفوضى والحماقة والغضب؛ لا أحب تلك الانفعالات أبدًا على الرغم من وقوعي فريسةً لهم.

وكالعادة لا شيء غير المعاتبة والمصالحة..

– لماذا رفعتِ صوتكِ هكذا بغضب؟

أكثر من إلحاحي بنفس السؤال لكي تعتذر؛ فتتحول باحترافيتها إلى منطقة الهدوء وتقول:

– لأخفي حيرتي لا أكثر، أنت تبدو بدويًا جلفًا عند الغضب يا سعيد، لكن في بداوتك شيء يأسرني، أنت عجيب الشخصية!

فيك غرابة، في كل تفاصيلك ما يثير الفضول؛ لذا أحببت اختلافك بل تميزك، أحببت فيك اضطرابك حين تثير الفوضى، ولا عجب، فقد كنتُ أتغنى باسمك في أحلامي وأنا لم أعرفك، وصدقني يا سعيد كَم تمنيتُ أن أكون أول زوجة لك، وأنت أول زوج لي، لاشك أن في دواخلنا حبًا عميقًا لكن تلك الحقيقة تنغص عليَّ كل شعور جميل..

– فهمتكِ..لا عليك، اهدئي يا عزيزتي.

ابتسمت وجذبتها بين ذراعيّ، وعبثت بأصابعي –التي تذوب كقطعة ثلج من حرارة اشتياقي– خصلات شعرها. بعد دقائق تتحول الحجرة إلى ساحة معركة أخرى غير تلك التي كانت بيننا منذ دقائق كانقلاب طقس مفاجيء، موجة من رياح ورعد وبرق تنتهي بهطول المطر..

اللذة تكمن في زوال الألم وتعلو أنقاضه، وعلى قدر الشعور بالألم يكون شعور اللذة مماثلًا لنفس القوة، وأعود لحضنها كغريق بين الموج القاتل، لكنني أستعين بنفس الموج لأطفو على السطح وأنجو..

ليتك –يا عزيزتي– تمنحينني لقب عصفور السلام، فما أحطَّ الظروف التي تتفاعل بانسجام كي توقع بيننا!

وما أتعس أن يتحول الحبيبان إلى تائهيْن في غياهب الزمن بقسوة العناد والغضب بكل صغيرة وكبيرة! لا تنسي أني في البدء حاربت كثيرًا من أجلك، كي أصل إليك، وليس من العقل أن نقع في الأخطاء التي تجعلنا نحارب بعضنا بعضًا.

كما قلت لك، اجعليني عصفور سلام، وضعيني في كفك لأغمض عيني وأنام، لأهرب من مكنوناتهم المختلفة والناس نيام، لأكون رسمةً في رايتك، ودعي الخلق للخالق؛ فالناس جميعًا حولنا أحرار فيما ألِفوه، وعليهم إن أساءوا أن يأكلوا ما صنعوه، أما نحن، فيجب أن نحطم كل ما ألفوه.

– كل شيء يمر بين يديك يستحيل باللغة يا سعيد.

ثم تتنهد بكلمة "أحبك" مع نظرة حانية.

– وأنا أحبك أكثر، أليس للذكر مثل حظ الأنثيين؟

فضحكتْ بصوتٍ عالٍ.

– ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف..

– أكملي الآية، وللرجال عليهن درجة!لا تحقدي؛ فأنا أحبك أكثر.

بضحكة وعنج لذيذ:

– حسنًا أيها الملك السعيد واسمك سعيد.

****

الفصل الثاني

أصدق ما يقال ويُكتب

يقولون إن أصدق ما يكون هو ذاك الذي نتردد في كتابته، وهذا صحيح لأن للسر المحجتب ألمًا داخليًا وألمًا خارجيًا، الداخلي بكونه مكبوتًا، والخارجي لو ظهر علنًا. السر جزءٌ منّا نحرّم على أنفسنا الخوض فيه، كما لو كنتَ تخوض في عرض امرأة عفيفة، لكن صاحب الحظ هو من يستطيع إخراج المكبوت وتنظيف وعاء نفسه الداخلي بالكتابة أو بالنقاش مع مثيل أو شبيه له شريطة أن يكون صاحبك أمينًا على سرك؛ وهذا يزيد الأمر تعقيدًا في زمن ندر فيه الوفاء بالعهد، وحفظ السر..

في الحقيقة أكثر شيء يجعلني أشعر براحةٍ وسكينة هو أن أذهب إلى المقهى، وليست كل المقاهي عندي سواءً؛ فطقوسي خاصة جدًا ولا يعجبني أي شيء بسهولة، ولا أهوي الجلوس في مقاهي المُترفين غالبًا كما أهوي مقاهي البسطاء. ربما تراني جالسًا بمقهى عفِن لا جمال في ظاهره لكنني لمست في روح المكان نوعًا من الجمال وهو ما أبحث عنه. أجلس متخذًا لنفسي طاولةً بركن المقهى بالداخل ووجهي قبالة الباب، حولي أصناف الناس بضجيج يُشعرني بأن هناك حياةً حولي، ثم أبدأ في الكتابة، هذا طقسٌ من طقوسي الخاصة وهو أنني أحب الكتابة في المقهى. يقتلني الهدوء الرهيب والصمت المطلق، الأفكار تتأتى إلى رأسي في المقهى أكثر من أي مكان آخر، كما تتدفق في مخيلتي المشاهد والأحداث في وسيلة المواصلات وأنا في سفر يمتد لساعتين –مثلًا– أتأمل وأفكر في محطات حياتي التي ربما لا أجد رباطًا بين أكثرها، مبعثرة بين الزمن، كرواية تلخّصت حبكتها في تناثرها الزمني، كمسافر (ترانزيت)

لا ألبث أن أحط رحالي إلا تأخذني وجهة أخرى، كبدوي في الصحراء لا وطن محدد له إلا خيمته التي يضربها على الرمال الشاسعة. في كل محطة من محطات حياتي أكون مستعدًا لحفظ ذاكرة جديدة على أنقاض ذاكرتي القديمة، لكنني أجد أن ذاكرتي الجديدة ما هي إلا إضافة لذاكرتي القديمة، لا جديد إذًا!

أراها فصلًا زائدًا في رواية محروقة.. لذلك كثيرًا ما أشعر بأنني نصف؛ نصف قلب، نصف روح، ومن ثمّ نصف أب ونصف زوج!

وعلى ذلك فإنني أعيش نصف حياة، حين انتبهت لهذا فزعت لأن أكمل النصف الضائع؛ أبحث عنه في الحب تارةً، وفي العزلة تارةً، وفي الكتابة تارةً أخرى. فكثيرًا ما أتوقف عن البحث مستسلمًا وأنا أقول في نفسي "إنني سأموت لأدفن في نصف قبر!"

أقول "نصف قلب" لأنني ما شعرت بالحب إلا لأفقده عاجلًا أم آجلًا لتتحول البدايات إلى ذكريات مُلَغمة تنفجر في رأسي حتى ينهار الجسد وتتألم الروح...

ونصف رئة، لأنني ما تنفست ملء صدري، كأن جبلًا جاثمًا على صدري.. ونصف إنسان، لأنني كلما شعرت بالحنين يكون حنينًا ناقصًا لأنني أحن لطفولتي ولم أجدها؛ العمر يجري ويمر، وأنا أتلفت إلى طفولتي في الوراء وكأنني أود التقاطها، لكن بلا جدوى.

حبي للقراءة والمعرفة جعلني أشعر بأني عُثّة كتب؛ أحببت فهم كل شيء حولي، وهذا ما جعلني أشعر بالتوازن النفسي كثيرًا حين كانت القراءة تشحن بطاريتي النفسية بطاقة إيجابية لأنهض مجددًا، وعلى الرغم من أن المعرفة والكتب جعلتني أشعر بأني أسكن فوق السحاب بمنأى عن البشر

فإن عاطفتي وواقعيتي كثيرًا ما تشدني من قدمي فجأةً لأسقط على الأرض، وترتطم رأسي بصخرة الواقع! وكنت أتساءل –بيني وبين نفسي– لماذا عليّ أن أهتم بالناس لتلك الدرجة وأنسى نفسي؟ وكنت أفكر، ماذا أفعل لو أصبحت رئيسًا للعالم؟

أول شيء هو أنني سأجمع ثروات العالم كله وأضعها بجانبي وأنا جالس إلى كرسي العرش، وآمر مناديًا لينادي الشعوب كلها لأوزع عليهم أموالهم وأربّت على أكتافهم لأراهم يبتسمون فقط، لا قتل ولا ملاجيء ولا تشريد ولا شيء.. لكنني أفيق فجأةً من المشهد التخيلي الذي تزعمته وأضحك ملء فمي، وأسأل نفسي، هل تود أن تكون إلهًا يا سعيد؟!

الإله هو من يستطيع فعل ذلك فقط –لو شاء– وأنت جِرم صغير بهذا العالم، لا عليك إلا أن تفكر في حدود إمكانياتك.. لكني أحب أن أفكر خارج إمكانياتي –على أي حال– ألم أقل لك من قبل عالم من الخيال؟

عالمي الخيالي لا محدود، لا منتهي؛ في مخيلتي صورٌ وأشكالٌ شتى موازية لصور وأشكال الحياة الواقعية، لكني جعلتها مطعمةً بكل ما أحلم به بعد أن أحوله حقيقةً هناك، ولذلك لو رسمت لك لوحةً من مخيلتي ستكون إبداعًا تجعلك تقف مشدوهًا أمامها وتقول كالأجانب (واو)!!

لأنها ستبدو لك خارج العادة، وما يكون خارجًا عن العادة في حياتنا نسميه خارقًا أو معجزةً أو كرامةً أو كما نسميه؛ حيث أصبح لدي الآلاف منها في مخيلتي حتي صارت عاديةً بالنسبة لي لا إعجاب فيها، وهنا يكمن السر، ودعني أخبرك يا صديقي أن الفارق بين المبدع الحقيقي وصاحب الموهبة أن صاحب الموهبة ليس مبدعًا؛ فليس كل موهوب مبدعًا، قد تكون موهوبًا لصنعك منتجًا جيدًا يعجب الناس، لكن لا يعد إبداعًا!

فالفن والصنعة مختلفان، وإن اشتركا في إثارة الشعور بالجمال داخلك، هل مررت مرةً على عمارة بواجهة مصممة ومزركشة بألوان متداخلة رائعة؟

نعم، بالكاد حدث ذلك، لكن هل سيكون شعورك نفس الشعور إن كانت تلك العمارة هي الأولى ولا مثيل لها بين مئة عمارة بمحيط المكان الذي تسكن فيه؟

نعم، هناك فرق كبير جدًا، فلو هي الأولى ستكون إبداعًا، ولو كانت من بين الكثير ستكون صنعةً، فكلنا في مجال الهندسة صناع إلا إذا فعل أحدنا تصميمًا عماريًا لا يعرف زاوية، يصمم بالدائرة فحسب؛ وهنا التصميم الإنشائي يكون أشد إبداعًا إن استطاع أن يحول الصورة المرسومة على الورق إلى واقع ومبنَى قائم.

الإبداع يخرج من عبقري كمنتج أول، والصنعة تخرج ممن اتبع خطوات الصنعة وتلقاها بالتعليم. هذه المسألة تكلم فيها الفلاسفة، وما جئت لألقي هنا درسًا في فلسفة الفن والجمال، ولكني أردت ضرب مثال على ما أقول فقط.

الانقطاع عن العالم جنون، ولسنا نعيش بمخيلتنا فقط وإنما هناك أيضًا روحٌ وعقلٌ وجسدٌ.

أنا أعرف كيف ومتى أدخل إلى عالمي الخيالي ومتى أخرج؛ الأمر ليس جبرًا ولكنه اختيار، لأنني أملك قرار الدخول والخروج، وفيه جزء من الإجبار لأنني لا أستطيع ألا أدخله أبدًا.

أما العقل فلم أعرفه إلا مع أول كتاب مسكته؛ لم أكن أعرف ما هو العقل وما كنهه.

كنت في السادسة من عمري أسمع كلمة (عقل، وإنسان عاقل) لكن ما كانت تتجاوز الكلمة حدود حاستي السمعية. في السادسة من عمري، اشتريت قصةً تافهةً بخمسة وعشرين قرشًا، هذه القصة من بين سلسلة كنت أتابعها، كانت تحكي حيلة الثعلب لافتراس خراف صغار؟ تفكير الثعلب ومغامراته وحيله حركتْ في رأسي شيئًا ما، ما كنت أنتبه له من قبل؛ إذ كنت مسالمًا جدًا، أفعل ما يقال لي فقط ككرسي في البيت، عكس أخي الذي كان يفعل خلاف كل شيء يقال له، حتى أنني كنت أشعر بالخوف أن أعاقب أنا على فعله هو، كنت أحس أنه فعل جرمًا ما كان ينبغي أن يفعله..

في قصة الثعلب، وجدتني أختار حيلةً معه، وأفكر فيما اخترته وفي عواقبه، توقفت عند الصفحة الخامسة وأغلقت القصة وخِلتني أنا الثعلب، وأخذت على عاتقي مهمة الافتراس نيابةً عنه، لا أعرف لماذا فعلت هذا، ولكن شيئًا قد حرّضني بلا تفسير، خرجت عن طوري، شعرت بلذة إذ عثرت على شيء جديد (عقلي) وقلت الآن –بعد التفكير– سأستأنف القصة وأرى النتيجة. المفاجأة أنني وجدتني ثعلبًا في صورة إنسان في تلك اللحظة؛ حيث وجدت نهاية القصة نفس ما فكرت وتوقعت، كما لو كنت أنا كاتب القصة؛ وقفت دقائق فاغرًا فاهي، مشدوهًا!

في السادسة من عمري، امتلكت عقلًا يجب أن أعمل به كي لا أتركه يصدأ، ومذ يومها أكرر التجربة.

حين كبرت وبلغت الثامنة عشرة من عمري تزوجت قريبتي، ما كنت أعرف وقتها شيئًا إلا أنني أصبحت زوجًا لفتاة احتجزتها ببيتي لتقول لي "يا زوجي"، وأقول لها "يا زوجتي" ونظل هكذا حتى ننجب أطفالًا يقولون لي "يا أبي"،

ويقولون لها يا "أمي". أما العمل فكنت أعمل في دكانة لشيخ كبير أبيع معه اللبن والجبن والزبد، كان رجلًا يبلغ السبعين، وزوجته كانت أكبر منه بثلاث سنوات، كما عرَفتُ –من حوارات والدتي مع جارتها– أن النساء يَعبن في تجمعاتهن الخاصة أن تكبر المرأة زوجها، كانا لا ينجبان أبدًا رغم طول مدة زواجهما. قال لي والدي: "إن هذا الشيخ تزوج تلك العجوز في سن أصغر منكَ" كان يقول لي ذلك كمثال محفز كي أشعر بأنني كبرت ويجب أن أتزوج، وكنت أفكر، هل سبب عدم إنجابهما هو زواجهما المبكر؟ شعرت بأنني بائس وقتها لكن سرعان ما تذكرت جيرانًا لنا بنفس السن تزوجوا وقد أنجبوا. الجنس عندي لم يكن للعقل فيه رأي، رغبة داخلية تجرني بإجبار لفعل شيء ما؛ كلما رأيت زوجتي تمشي أمامي خلف باب مغلق، موضوع الباب المغلق كان مثيرًا بالنسبة لي إثارةً زائدةً.

وهذا لأنني كنت أشعر بخصوصية وأمان رهيب ما جربته من قبل، لا سيما مع فتاة صغيرة في نفس المكان بلا خوف من أن يهجم علينا أحدٌ ليقتحم خلوتنا ويتهمنا بشيء. كنت متحررًا من شعور السرقة، سرقة جسد أنثى كمن يفعل في خرابة أو في بئر السلم أو فوق السطوح في الظلام. كنت أشعر بالخجل أحيانًا، وهي أيضًا. النظر إلى جسمها والتلذذ بتفاصيله فن (أيروتيكي) أو إن شئت فلك أن تسميه (بورنوجرافيك) أو أي شيء..

يعقبه أفعالٌ بدافع الفطرة والغريزة. حالة عجيبة تنتابني؛ رجفة وقشعريرة ورغبة في الصراخ، ثم تسيل الشهوة مع شعور لذيذ وحالة شبع مؤقت. ما كان يمنعني سوى سبب بيولوجي طبيعي؛ فبعد القذف تفقد حرارة شيئك وكأنه فعل كل ما عليه.

عقلي لا مجال له هنا؛ كنت إذا فكرت في شيء انصرفَتْ رغبتي، كنا في ذلك نتنفس الرغبة المكبوتة فحسب، كما كان أول إنسان في البداية في الميثولوجيا..

لكن كل هذا قد تغير بعد سنين طويلة؛ علمتُ فيها أن الجنس ليس جسدًا فقط، ولكن اللذة كلها تكتمل بدور العقل، فالعذرية في أي شيء لها طابع الأصالة، لكنّ شيئًا مُهمًا يكون مفقودًا، تدركه بعد..

قال لي أحدهم خلال حوار:

"العاهرة تملك أسرار الجنس ولا تمنحه إلا لمن أرادت؛ سر الصنعة الذي تهبه لأي أحد هباءٌ!

يلِجُها الجميع لكن ولوجهم لا يتخطى الجسد؛ هناك في الوجدان والنفس والعقل والمخيلات مناطق إثارة لا يشعر بها إلا الخاصة. مثقف مثلك يا سعيد، يمارس الفكر مع فتاة جميلة مثقفة يكون مقدمةً للذة الجسد، بل ربما تكتفي بها لذة، أليس كذلك؟"

هززت رأسي وقلت: نعم.

استأنف حديثه:

"ومن لم يذق عاهرةً لم يذق الجنس، وما تفعلونه مع نسائكم هو ما تفعله البهائم بالغريزة دون معنى؛ اعتلاء وهزات على السرير، سريعًا تنتهي بقذف الماء لتقول لك بعد حين: "مبارك، أنا حامل" وعليك بعد تلك الكلمة العبثية أن تحثو التراب على رأسك طيلة حياتك.."

انفجرت بالضحك لخفة ظله، على الرغم من أن كلامه كان غريبًا في بعض المفاهيم، يُرجف داخلي، لأنه هتك مُحرَمًا ومسّ مكبوتًا لدي!

انصرفتُ يومها دون كلمة مني وفكرتُ، كيف لرجل محترم أن يضاجع عاهرةً إلا إذا كان فاجرًا؟!

الأصالة الدينية المقدسة تدفعنا أخلاقيًا إلى التوقف في الإشارة الحمراء مهما يكن الطريق فارغًا واسعًا..

الذي قصدته من تدخل العقل في اللذة هو كيف يُسيّر الموضوع وينظمه ليحصل الجسد على متعة أكبر. العقل هنا يشبه القواد الذي يجلب العاهرة لهذا الصديق العابر، أما خلاف ذلك فالعقل يبدو كرجل رزين يلبس بدلةً ورابطة عنق، واضعًا رجله على الأخرى ويحتسي قهوته في تفكّر.

بعد حين بالفعل علمت أن هناك أسرارًا ومتعًا أخرى بوسائل متعددة، ما كنت أعرفها من قبل، ربما تسربت من عند عاهرة صاحبنا. خِلتُ أنها نامت فجأةً وتركت فخذيها مفتوحين لتستيقظ صارخةً وهي تقول: "أين أشيائي.. أين أشيائي، وأين أسراري؟

لا شك أن الأسرار في وقتٍ ما ستتسرب للعلن أو للآخرين، تمامًا كما تسرب إليَّ سر صنعة العاهرة في الجنس.

لا أخفيكم سرًا –ولماذا أخفيكم وقد اتفقنا على ألا نخفي مكبوتًا– لقد تعددت في الحياة علاقاتي وتجاربي العاطفية، ذقت الهوى مراتٍ ومراتٍ بتفاوت اللذة الوجدانية، من بينهن من تمنيت أن تكون مستقري في نهاية الرحلة، سعيت لتحقيق ذلك ولم يحدث لأسباب ما أكثرها وأحطها!

كنت أهدِّد مع كل مشكلة بالرحيل رغبةً في نيل تعلقها بي، وكان يأسرني ذلك التعلق، وذات تهديد عفوي رحلَت هي، تاركةً بابًا من الوجدان، مفتوحًا كجسد لا مناعة فيه؛ يستقبل فيروسات وبكتيريا النساء دون قوة منه لمحاربتها أو الفرار منها بعيدًا، يقع فريسةً لتحايلهن، وهن جديراتٌ باستغلال

نقاط الضعف الواضحة؛ الرغبة في الحب، البحث عن السعادة المتمثلة في امرأة عاشقة –حيث أكون راجيًا متمنيًا– ثَمة رغبات من بعضهن في التعرف والتدلل، تتهادى من باب مُوارب في نفسي، تعبث وقتًا ما في مشاعري ثم تمضي وترحل، أو حتى أُخرجها أنا، بعدما خدشَت وجداني بأظافرها بقسوة، ومرةً فمرة صرت مهترئًا نفسيًا. بعضهن كان في عبثهن لذةٌ، لذةٌ كنت أعرف أنها ليست حقيقيةً وستزول في وقت قريب، لكني كنت أعيش بوجداني معها بمبدأ "يجب أن أعيش اللحظة" كنظرية يعيش بها غالب المصريين وهي نظرية (هي موتة ولا أكتر)، ومنهن من تأتي في حياتي كالفاصلة بين جملة قديمة وجملة جديدة، على الرغم من أن لها معنًى لكنها خافتة الظهور بين الجُمل، ليس لها غير ذلك المعنى. فاصلة بين جملتين: أي علاقتين.

في أوقات الفراغ حيث لم يكن لدي رفيقةٌ لوجداني أكون كالفلبينية المصاحبة لإحدى النساء الأرستقراطيات، أعيش حالة الحب وحدي، أكون فيها كل شيء، وأمثل فيها كل الأدوار كمؤلف رواية؛ يضع أحداثها وشخصياتها بنفسه، ويتفاعل معهم..

أجلس في خلوتي بالليل مع الظلام، وأستمع إلى أم كلثوم والعندليب وأمثالهم، وأعيش مع الموسيقى والكلمات، الموسيقى بالنسبة لي أهم لغة تعلمتها أو أسمعها في حياتي لأنها لغة الإنسان ككل، فمهما تختلف ألسنة الناس وتتفرق باللغة فالموسيقى هي لغة جامعة، الشعر والموسيقي هما الوجدان في صورة رجل وأنثى.

الحب كان من أهم دوافعي للحياة –لا أخفي عليكم– لكن الحب يحتاج عوامل أخرى تحافظ عليه، قد يفقدها أحسن الناس حبًا، ويتحول الحب إلى لعنة وشبح قائم على روحه التعيسة، من تلك العوامل وأهمها بالنسبة لي هو المال –نعَم المال!– أخبِرني ماذا ستفعل لو أحببتَ من هي أغنى منك؟ أو حتى في نفس بيئتك لكنك أشد فقرًا من أن تقدم لها شيئًا تتزوجها به؟ وحتى لو كانت تمتلك المال وقالت لك تعال فالمال لا يُفرقنا، أعتقد ليس من اليسير الاستجابة لتلك الدعوات التي غالبًا تُبنى بدافع العاطفة وسرعان ما ينقضها العقل بالمواقف بعد ذلك.

أعتقد أن تلك قصة معلومةٌ لدى الجميع، وما أوقعها! وقد امتلأت الدراما والسينمات بقصص الفقراء ولعنة الحب، وكذا قصص الأغنياء وتحامقهم على فقير أراد الزواج منهم.

ما الذي يمنعك من أن تحصل على امرأة تعشقها وتتمنى ألا تفارقها أو تفارقك؟ بل ما الذي يجبرك على التردد لتطلب يدها أو الخوف من أن تنشب الخلافات بينك وبين أهلها عند الاتفاق على تفاصيل الزواج؟ وحتى لو تمت الخِطبة، فما يحملك على أن تصبر عامًا أو أكثر لكي تتزوجها ويتم الزفاف؟

تلك الأسئلة معلومةٌ الإجابات لا تحتاج إلى طول تفكير ولا عبقري ليأتي بالإجابة!

إنه المال –يا صاحبي– الذي لو لم يكن موجودًا جعل حياتك بلا معنى، ستقول بل الحب، قلت لك آنفًا إن الحب يحتاج لمن يحافظ عليه وأهمه المال.

وحتى لو قلت أي شيء آخر، وليكن –مثلًا– الصحة، نعم المال مع المرض والوهن الجسدي لا قيمة له، وهذا الذي أشرت إليه سابقًا حين قلت إنك لو فقدت شيئًا واحدًا وحويت أشياء فربما يعكر فقدانك هذا الشيء صفو امتلاكك واحتوائك غيره.

وأنت لو حزنت أو تغربت في البلاد ومعك المال فحالك سيكون أفضل، حتى لو لم يدفع عنك المال ما تشعر به من سوء، فهل لو أنت حزين فقير لا تملك شيئًا، تنام على الرصيف، ملتحفًا فقرك، كأنت وأنت حزين؛ تقضي وقتك في أفخم الأماكن المخصصة للنزهة والمتعة، وتأكل وتشرب –إن أردت– كوسيلة لقتل الملل وتزجية الوقت والقضاء على الحزن، وتنتقي أفخم الفنادق –إن كنت غريبًا– بمالك ويخدمك الكل حتى لو في غير وطنك؟!

وكما قيل: الفقر في الوطن غربة، والمال في الغربة وطن.

الإفراط في المثالية وتناولنا الخيال في حياتنا يفسد علينا الحياة، لأننا لن نفهم الواقع بدقة؛ ومن ثمّ لن نستطيع التعامل والتفاعل معه، فلو قال أحدهم لك الكلمة التي نسمعها كثيرًا في مجتمعنا هذا وهي أن المال ليس كل شيء؛ فأخبره أن المال أساس كل شيء حتى ولو لم يكن كل شيء كما تقول، وهل يحول بينك وبين الوصول إلى هدفك حال اتباعك كل الوسائل المطلوبة إلا قلة المال؟

كُن أكثر واقعيةً يا صديقي، لا تكن أحمق، وفكر جيدًا بعقلك لا تعيره غيرك ليلقي فيه فكره هو.

المال يوفر سنواتٍ من التعب والانتظار، ويفتح أعتى الأبواب المغلقة، ويجلب لك الفرص تحت قدميك، كما يجلب لك الجميلات الفاتنات من كل مكان، وأمورًا أخرى.

وقل لي –بالله عليك– لو كنت صاحب فروق فردية ومواهب متعددة، ولكنك فقير مُهان بفقرك، هل تستطيع استغلال تلك المواهب كما ينبغي، أم أن غالب وقتك وحياتك تسعى فيهما زاحفًا متطفلًا بين الناس في زحامهم لتبحث عن عمل؟ ربما يكون عملًا مهينًا ترضاه لأجل الحصول على مال قليل لا يتماشى بأي حال مع ما بذلته من جهد وعرق، أو لا يُهَوِّن عليك ألم الشعور بالإهانة مع أصحاب وزملاء عمل أنذال وضعاء أحيانًا؛ وهم من وجدتَ عملًا عندهم دون غيرهم..!

في وقت أنك ترى النجوم بأموالهم؛ لا فكر ولا فهم ولا حرية عندهم غالبًا، وليس أسوأ من أن يعيش الفاضل من فضلات المفضول، أو أن يشعر بدونيته في مجتمع رأسمالي عفن يسير بمبدأ متحلل ومنحل، كما يقال في الأمثال الشعبية: "معك قرش تساوي قرشًا".

قال الشاعر:

يذل غَني النفس إن قل ماله

ويَغنى غَني المال وهو ذليل.

ولذلك من الأمانة أن أخبرك هذا الشيء المهم:

الواحد منّا في حياته منذ البداية يسير في محطات مختلفة حسب مراحله العمرية، والفَطن الذي يعطي كل مرحلة حقها، فمرحلة الشبيبة قبل الزواج وبناء أسرة هي أهم مرحلة في تكوينك الاجتماعي، كما أن الطفولة هي أهم مرحلة في تكوينك النفسي. في الشباب يجب ألا تجد الراحة؛ كلما ارتاح

الشاب في شبابه زادت عليه أعباء ما يليها من مراحل، أنا أتكلم عن الشباب الذين لم يُولدوا وينتظرهم مال آبائهم وأمهاتهم بالطبع، وإنما أقصد من ورثوا فقرهم، وأتعجب جدًا من الشباب الذي يلف ويدور حول نفسه في دائرة ضيقة بلا أي استعداد للتضحية؛ يقضي شبابه في اللهو والترف وتضييع الفرص حتى يفيق على مُر، المر الذي يتجرعه بقية عمره، وقد فاتته فرصة أن يفعل ما كان ينبغي فعله بسهولة في شبابه؛ فجأةً تتبدل أحوال الحياة للأصعب والأشد لتعصف بحيوات الناس الاجتماعية، ولكن غالبًا نجد مَن تعب وجدَّ واجتهد وثابر وغامر –لا شك– سيكون أخفهم وطأةً وأحسنهم حالًا. بالطبع أقصد المال والعلم، مالٌ تجمعه لترتاح بقية عمرك، وعلمٌ تؤسس به عقلك، يدفعك لكل خير ويوسّع مداركك العقلية. مُت على الطريق حتى ولو لم تصل، هذا أفضل من أن تصل إلى نهاية الطريق صفر اليدين، فارغ العقل، كما قيل: "حمار ذهب في طلب قرنين فعاد بلا أذنيه" فتتزوج دون أن تحسن الاختيار، وتبني أسرةً، وتنجب أطفالًا تضيّعهم، ولا تؤدي حقهم، وأنت تظن أنك فعلت كما يفعل الناس، وأنت أقلهم!

كلامي هنا سيقع في قلب وعقل المقصود به، سيلمس قلبه وعقله.

علَّمني شيخي الذي حفظتُ القرآن بين يديه تلك الأبيات:

وكل من لم يركب الأهوالا،
ولم يفارق أهله أحوالًا،
ولم تُقطِّع رجله النعالَا،
يطلب علمًا أو يصيب مالًا؛
فأعطه المِروَدَ والمكحالاَ،
وزد له في الأقراط والحُلال،

ودعه أن يجالس العيالَا؛

فذاك لم يشبه الرجالَا

كثيرةٌ هي الحلول والفرص ونحن لم نكن نضجنا بعد، وحين ننضج ننضج في الوقت الضائع بلا أي فرصة متاحة. تتساءل أحيانًا بماذا أفادني النضج بعدما فاتت الفرصة ولم يكن بالإمكان فعل شيء إلا أن أعيش لأنعي الحظ الذي فلَت، حتى في نضجك وخبرتك شيءٌ من اللعنة؛ رغم اختراقك السنين الطويلة، مخلفًا وراء ظهرك مشاهد وأحداثًا ما كنت تشعر بها وقت حدوثها، فإن استدعاءاتك لها لتُخضعها للتشريح والفحص أمرٌ قاسٍ جدًا، لا سيما إن كنت جراحًا غشيمًا في الصنعة بأدوات ليست هي الأفضل، وأيضًا إن أيقنت وأنت تشرح ماضيك أنك كنت مغفلًا، ساذجًا في بعض القرارات في حياتك ولم تكن محتاجةً نضجًا؛ إنك كنت معاقًا ذهنيًا –على ما يبدو– ثم تعافيت بعدُ، وأخفوا عليك هذا.

هل تعرف يا صديقي، ما معنى أن يتشظّى إنسان؟

بالتأكيد جاء في ذهنك صورة أحدهم وهو ينفجر بعبوة ناسفة فتتشظى جثته وتتناثر بكل مكان، حتى لو كما تخيلت فهذا أخف وطأةً ممن تشظّت هُويته أو فقد ذاته!

بعد انتهاء الجسد لا نفس ولا وجدان ولا مخيّلة، وحتى الروح العائمة في اللامكان واللازمان واللاحجم واللاكتلة، لا تشعر بها وقت أن تخلّت عنك هاربةً وتركتك جسدًا لا حركة فيه، كأن لم تكن، لكن الأقسى هو أن تكون روحك مستماتةً فيك، ترضى بعذابها لأجل أن تزيد من عذابك نفسيًا..

وبما أنني تكلمت عن الجسد الفاني فلن أنسى ستة عشر شهرًا من الجنون؛ قبعت في مستشفى للصحة النفسية، قالوا لي إن وجودي في هذا المكان لأُشفى من مرض بسيط، والصواب هو لأشفى من موتها، لم أتحمل فراقها بعد خمس سنوات من الحب العميق الذي منحتنيه، ستة عشر شهرًا يصفُني الناس بالمجنون، كنت قبل ولوجي المستشفى أفزع ليلًا إلى القبور، متجهًا لمرقدها؛ أكلمها، وتختلط الحروف بين شفتيّ بالدموع الجارية، كنت أشعر أنها ترد عليّ، كانت بالفعل ترد وتجيب، شعرت بقربها كثيرًا وهي تعانقني، كنت من التعب –أحيانًا– أغفو وأراني أسللتُ داخل القبر لأوقظها برفق؛ وجهها مضيء كالقمر، رائحتها هي نفس الرائحة التي ما زالت في أنفي لم تفارقني مذ آخر مرة تعانقنا فيها ومارسنا الحب، نفس النظرة الحانية بعينها الباسمة، تمسح بأهداب جفونها عني التراب العالق بي، ونسيت أن التراب أكلها، تربّت على كتفي وتوصيني بنفسي خيرًا كما كانت توصيني في حياتها، يمر الحلم السريع كزمن بطيء معها، وينقلب عليَّ الحلم إلى أشد ما يكون من الكآبة حين أدرك أنني كنت أحلم، أبكي بشدة، أمسح دموعي بكُم قميصي، وأعود إلى بيتي، ألتفتُ إليها التفاتة مودعٍ، وحينما أدخل حجرتي أنام وأكد في النوم حتى أتعب منه، كل الناس ينامون للراحة ولكني لا أجد الراحة بعْد!

كل المسلّمات صارت شكًا عندي، وكل أبيض أسود بعيني، كل شيء صار ضدًا، إلا الحب الذي منحَتني إياه ما زال كما هو، ستة عشر شهرًا كنت على حافة الجنون الحقيقي بعدما تركتني في الحياة ومضت، في ليلةٍ اشتد فيها سواد الظلام وكان المطر غزيرًا كنت في غاية الانسحاق النفسي، ومنذ يومين لم أذق طعم الزاد، أشرب الماء وأنام، وأقوم لأنام بعدها بقليل،

جلست في تلك الليلة أشاهد المطر، وأتأمل اختلاط الماء بالطين في الشارع، ما كنت أتأمل بل كنت سارحًا بخيالي، لكن شدني مشهد المطر وهو يضرب الوحل بقوة، لا أعرف لماذا عندما خِلتُ وجهها فجأةً، ارتعدتُ، فكرتُ وقلت في نفسي:

– القبر الآن يسفُ الماء ويتسرب إليها وهي نائمة، الوحل يحويها!

ثم استعدت التركيز والتفكير بمنطقية وقلت:

– لقد أكلها الدود وصارت ترابًا، واختلط الماء بالتراب لتصير وحلًا، حبيبتي صارت وحلًا؟!

تساءلتُ، بكيتُ بقوة ولصوتي نشيج ثم استعدتُ منطقيتي وقلت هذا الجسد الذي فني فقط، وأما الروح ففي الجنان كطائر أخضر يحلّق حول أشجارها، التفكير في تلك الفكرة والاستغراق فيها كان يصيبني بالبرود لأخرج من حالتي السيئة.

ولا أخفيكم سرًا أنني فكرت مرةً في الانتحار لألحق بها، كنت حينها أتذكر فيلمًا أجنبيًا وقد حدث فيه ذلك المشهد، لقد انتحر البطل بعدما غرقت حبيبته ليذهب إليها، وعلمت أن هذا الفعل الشنيع لا يجعله يذهب إليها، بل سيَحول بينه وبينها في العالم الآخر مرةً ثانية، بعدما فارقته في الدنيا مرةً أولى، وقلت هذا البطل في ذاك الفيلم كان غبيًا جدًا؛ لماذا لم ينتبه لتلك الفكرة، أنه بانتحاره لن يقابلها في الجنة؟ إلا لو كانت البطلة من أهل الجحيم فلا ضير أن ينتحر ليذهب إليها، لماذا لم يخبره مخرج الفيلم أو أحدٌ من طاقم العمل والممثلين بهذه الحقيقة؟

لكني قلت ربما كانوا ملحدين، لا يؤمنون بوجود جحيم ولا نعيم، ومن ثمّ تتلاشى أجسادهم وأرواحهم كأن لم يكونوا؛ مثل: كلب دهسته شاحنة فصار هو والأسفلت واحدًا كأن لم يكن، ثم انصرفتُ عن الفكرة، والآن أعيش كإنسان عادي –أقصد كشيء عادي– أقضي الحياة كما تريد أن تُقضى، على الرغم من أننا خُلقنا فيها لنعيش لا لنقضيها كما تريد أن تُقضى!

ألم أخبركم أنني نصف فقط؟! ولكن ما عسانا فعله لو كنا نريد أن نكون شيئًا آخر غير ما أجبرتنا عليه تلك الحياة؟

الاستسلام في النهاية بخطة انسحاب محكمة كي لا تَعظُم الكوارث أكثر، كما أقول لكم، نعيش بالذكريات الجميلة؛ النوستالجيا هي المحرّكة على الرغم من أننا بها نتحرك للوراء، وأقول هو أفضل من الوقوف والتجمد على أي حال.

ولا أخفيكم سرًا، أنني لن أتجمل أمامكم؛ فالكتابة لو ستكون بالتجمل فهي ليست من الوجدان وإنما من العقل، وأنا لا عقل لدي الآن كي أتجمل حتى إن حاولت ذلك. صفحة وعيي وإدراكي فيها شخابيط كشخابيط طفل شقي على الجدران، وجداني فيه يَبْس وتجمد كبحرٍ كان جاريًا فاستحال جليدًا. ربما أنا مغشيٌ عليَّ خياليًّا رغم ظاهري الذي يقول عكس ذلك، أخرج لأتمشى في الشارع فأشعر أني خاملٌ جدًا وملامحي ثابتة متيبّسة كصنم، كل شيء بدا من حولي مُقَنّعًا؛ لا أستطيع رؤية الناس، وكان يخنقني بشدة أن أكون حيث يكون حولي جماعات من الناس وأسمع همهماتهم وأصوات صياحهم، الخلوة والجلوس وحيدًا والصمت الرهيب والتأمل، الحزن والكآبة والذكريات، لِحيَتي لم أحلقها منذ فترة، شعري صار على رأسي كخيمة، انتبهت لهيئتي في مرآة متصدعة قذرة، في تلك الفترة

كنت أشعر بانسحاق رهيب، وعند النوم أغمض عيني، لا أقول أنام، فالنوم هو الراحة، ليس أن يرتخي جفناي ليلتصقا فقط!

فكرت من شدة حرارتي النفسية أنني سأنفجر بركانًا، كنت أتساءل، لماذا لم أنفجر فجأةً وينتهي الأمر؟

الحرارة الضاغطة القميئة تؤلمني أكثر من الانفجار المفاجيء، أشعر بأني تخلصت من كل معاني الحياة إلا الحركة فحسب. ثمة شيء واحد هو ما سيخرجني مما أنا فيه، الشيء الوحيد ولا يمكنني فعله لعدم إتاحته؛ أن تظهر لي ولو مرةً ثم تختفي، لتدعني أضاجعها مضاجعة مودع يشعر بنهم وشَرَه شديدين في رغبته تلك، أن أدخل بذاتي لذاتها، وكأني عبَرت بداخلها ومن خلالها إلى العالم الآخر، لأشعر بانتصار عظيم، لأنني ضاجعت الموت ذاته.

في إحدى الصباحات استيقظت شاعرًا بإعياء شديد وانتابني سُعال مستبد، ما انتهيت من السعال حتى كدت أختنق، كأنني أثرْت نزعة الشفقة عند السعال ليتركني مليًا بشكل مفاجئ. صنعت كوب ينسون وشربته ساخنًا عله يغسل حلقي، ومشيت في الشقة ذهابًا وإيابًا في ملل؛ إذ لم يكن لدي ما أفعله، اليوم طويل وليس عندي شيء سوى أن أدس يدي في مكتبتي لأخرج كتابًا أقرؤه، حتى إذا شعرت بالتعب والنعاس نمت ثانيةً والكتاب جواري كأداة قتل بينما أنا مقتول، هكذا سأبدو لمن يراني في تلك الحالة.

في الليل كانت حرارتي مرتفعةً جدًا وشعور بالرغبة في القيء، السعال عاد مجددًا، كلما قمت من رقدتي واقفًا أصابني الدوار، فكرتُ في شيء أفعله حيال نفسي، جاءتني فكرة تُذهب عني الوجع، وهي أن أنام.

فترة في حياتي كنت أتوقع فيها النهاية، كثيرًا ما أتتني فكرة الموت، كثيرًا ما فكرت في طريقة موتي المفاجئة للناس، إما أنام فلا أقوم، وإما أسقط فجأةً وأخِر ميتًا دون سابق إنذار، كأني شخص كئيب في رواية لديستويفسكي، لاذ بالفرار من صفحاتها إلى العالم، العالم الذي به نسخ كثيرة من هذه الذوات المُتعَبة المُهمَلة، ولستُ بدعًا من الناس، لكن الناس لا يشعرون ببعضهم، في وقت أن هناك منهم من لا يشعر بنفسه ولا يعرف ماذا يريد!

فهي وحدها كانت أُنسي، وبرحيلها صارت هي مادة وحدتي، وأصبح وجداني السحيق يُشع وَجدَه المُميت كل لحظة، توحلني الذكريات بوحل الشوق كالمطر حين يختلط بالتراب، وكالتراب حين يبتلع الجسد، وكالكُرةِ المرسَلة بلا مرمى، لتصبح كل المعاني عندي مظلمةً.

****

الفصل الثالث

الذكريات تنفجر كالألغام كلما مررنا بها

الذكريات تتداعى وتتقافز أمام ناظري كلما شاهدت القطار ورأيت عربة (الكارو) يجرها حمار، وشاهدت الحمام يطير فوق سطح الدار، رأيت طفولتي الميتة في مهدها، وشبابي المرهق المتعب كرجل بلغ السبعين، حتى اهتماماتي وأفكاري وأسلوب حياتي، يقولون لي:

– "أنت تبدو رجلًا كهلًا".

إن أشد ما يشعر به الواحد منا هو الإهمال؛ أن يكتشف أنه هامشٌ في حياة المقربين له، أن يفهم أن علاقة الكل به مبنية على المصلحة واللامبالاة والبرود، حتى الزوجة التي تعاملك على أنك رب البيت الجالب للمال وحامل هموم العيال؛ لا تمد يدها فجأةً على كتفك لتربّت عليه، ربما في نفسك ما يحتاج إلى ذلك، ربما تقصيرك في شيء تجاههم –رغمًا عنك– يجعلك تحتاج لذلك لِما في نفسك من الشعور بالعجز عن فعل ما ينبغي في الوقت الذي ينبغي.

فجأةً تستوقفني تساؤلاتٌ في رأسي وأنا أكتب الآن، ماذا أريد قوله وما فائدة أن يقرأ الناس ما أكتبه، ومن أكون حتى يهتم بي أحد؟!

في وقت أن الشاعر بالغربة يشعر بأنه لا يثير اهتمام أحدهم، كما أنه يزهد فيهم ألف مرة مع كل مرة يزهدون فيه، فكيف تؤثر الكلمات فيهم وما الجدوى في ذلك؟

لا ألبث إلا أن أدع عني فكرة التفكير والاستغراق في أسئلةٍ كهذه، وأواصل مستأنفًا كل ما يَغلي به رأسي لأدلقه على الورق، ولو كان مآله إلى بائعة الفلافل في دكانة بحي شعبي، لتصنع منه قراطيس لتبيع فيها لفقراء

الحي، المهم أن أواصل ما أحبه وأبتغيه من كتابة كل ما أفكر فيه وأشعر به؛ الراحة النفسية التي أحصّلها من الكتابة لا يعادلها راحة، كمن فتح في أعلى رأسه فتحةً ليحرر ما فيها من كلمات وحروف وأفكار شوّشت الدماغ كثيرًا، وضجر بها القلب النابض، ولعلني أستريح بسكبه بين أعينكم..

أعرف جيدًا أنه ليس من الصلاح أن يتحدث المرء عن نفسه كثيرًا، ولكن أحيانًا بل غالبًا نحتاج إلى التحدث مع أنفسنا وعن أنفسنا، ليُزيل عنا شيئًا من كآبة الحياة، وسخافة الواقع، ومُر التجارب.

لا يظن أحدكم أن ما وصلت إليه من الضجر والحنق جعلني شخصًا متمردا ناقمًا على كل شيء، لا، لكن الحروف هي التي تئن وقت أن صبرتُ كثيرًا، وكل تحركاتي في الحياة تشفع لي، وحتى ما أكتبه يشفع لي؛ فكم حاولت تقطيع العلائق وتخطي العوائق! وكم حاولت بثقة أن أكون في المكان اللائق! وبلغ من سعيي أني وصلت إلى أن أكون كاتبًا، على الأقل أستطيع كتابة ما أشعر به، لا أنتظر أن أكون كاتبًا عملاقًا لأجل أن يقال عني "كاتب عملاق"، ولا أنتظر أحدهم أن يُخرج بيانًا ينتظره الجميع ليمنحني لقب "روائي"..

بل لأنني أحب أن أكون مؤثرًا في الحياة وما يحيط بي، وأن أترك أثرًا ربما ينتفع به أحد ما في يوم ما، وأن أكون –على الأقل– نافعًا بعد موتي إن فشلت في تحقيق هدفي، أو إن لم تحن لي فرصةٌ لأنفع الناس وأنا موجود بينهم، ربما تقولون عني "إني حالم، أو إني أرى نفسي". على العموم هو لكم، لك أن تظن يا صديقي أو تقول أو تفعل ما تريد، لا يعنيني؛ فكل ما فوق التراب تراب.

السنين الطويلة التي عشتُها في الحي الشعبي جعلتني أرى ما بداخل الناس على حقيقتهم، وأرى صنفًا آخر من الناس وهم ينظرون إلى هؤلاء من

الخارج، وأراني أحس أن هناك شيئًا إنسانيًا غاب كثيرًا عن الناس، وبعضهم جعل هناك هُوّة عظيمة استحال أو –إن صح التعبير– يصعب معها الالتقاء، فئة في أقصى اليمين وأخرى في أقصى الشمال، وفي كل فئة عدة يمائن وعدة شمائل يقبع فيها أناس منهم، وهكذا تصغر الدوائر حتى تصل إلى دائرة ذاتية فردية، ومع كل حالة شعور بالرغبة في العزلة والانطواء تزداد الفردية والأنا عند الناس حتى تفكك مجتمعهم وما عاد يربطه إلا أحط المعاني المشتركة. ففي الحي الشعبي الذي كنت فيه طفلًا صغيرًا مررت بمراحل حياتي، كنت أجد ترابطًا بإفراط، وصل لأن كان أهل الحي مترابطين مع غرباء جدد، سكنوا قريبًا دون السؤال عن أصولهم والاهتمام بتاريخهم. فكان جارنا (عبد الباسط) يعمل سائقًا وكان يسهر الليل مع جارنا الجديد (عِز) الذي كان يعمل في فرقة زفاف شعبية، وكان أصحاب عِز يأتون للسهر معهم، منهم من كان متزوجًا راقصة، ومنهم من كان يعمل في البلطجة، ويقول إنه يأخذ أجرةً لوقوفه بجانب الضعيف الذي سُلب منه حقه فقط ولم يستطع استرداده؛ فيذهب مع فريقه إلى المغتصب لحق هذا الرجل أو تلك المرأة، وما يلبث أن يتدخل في الموضوع إلا تُحل المشكلة بسبب خوف هؤلاء المغتصبين من العواقب، هذا عملهم الذي يأكلون منه. وأحدهم كانت تخرج زوجته لتتسول في بلاد بعيدة لتعود آخر النهار بحصيلة نصف شهر من راتب موظف، وكان يجلس معهم أيضًا فئات أخرى من الحرفيين، كان هناك ترابطٌ عجيب، ولم يشعر أحدٌ منهم بالدونية والخزي؛ يجعلك تتساءل هل هؤلاء الناس تقابلوا وتقبّلوا بعضهم بمحض الإنسانية دون النظر أو الالتفات إلى أي شيء آخر؟!

وأعجب شيء تلك المرأة البيضاء السمينة التي تزوجها شاب ثلاثيني يصغرها بخمس عشرة سنةً، رياضي يلعب كمال الأجسام ورفع الأثقال، وبنيته العضلية ضخمة، ما كان يعمل في شيء؛ يستيقظ العصر ويخرج تفوح رائحة العطر منه لتملأ الشارع، وهي تخرج خلفه لتقف على الباب تنظر إليه وهو يمضي في طريقه إلى المقهى؛ حيث يبدأ يومه مع أصدقائه حتى منتصف الليل أو الفجر، كانت تتسول نهارًا وتعطيه كل شيء ليلًا، وكنت أقف كثيرًا وأنا ابن الخامسة عشرة متعجبًا ومتسائلًا عن كُنه تلك العلاقة، لقد كنت أمثل الفارق العمري بينهما، وكنت أحب مشاهدة تفاصيل عضلاته من فوق السطوح؛ حيث كان يسكن دارًا منخفضةً لا سقف لجزء منها، هذا الجزء الفاصل بين حجرات نومهم هم وأطفالهم، وسْط دورة المياه المقابلة لها دهليز واسع ينشرون فيه ملابسهم، كنت أتندر على سروال المرأة الداخلي الضخم، ومؤخرتها تركت تجويفًا فيه كتجويف خلَّفه نيزك سقط في أرضٍ ما، حين كانت تنشره كنت أجمع أصحابي على السطوح وننظر إليه وننفجر من الضحك، حتى رأتنا ذات مرة وفهمت سبب ضحكنا، فأخذت تشتم بصوتها الجهوري المناسب لكتلة جسمها التي تشغل حيزًا كبيرًا من فراغ الدهليز، خشينا أن تخبر زوجها البطل، كان هذا اسمه وكما كنا نصِفه، وخشينا أن يبرحنا ضربًا. كانت الخناقات تدب بينهما فنسمع صراخها وهو يضربها، وما كان يهتم بأمرهم أحد، والسبب أن هذا الرجل البطل تشاجر مع جارنا (عبد الحميد) لأنه اقتحم الباب ودخل لينهي الشجار بينهما ذات مرة وكانت المرأة شبه عارية، لحمها أبيض مترهل كما حكى الرجل بعدها وقال لوالدي –وهو ينفجر من الضحك–: "إنه شاهد فيلًا أو خرتيتًا جاثيًا على الأرض

ويدب فيه ملاكم بقبضة يده، يقهقه ويقول أيضًا لوالدي والله ما رأيت فيلًا أبيض في حياتي إلا في تلك المرة!".

في يومٍ من الأيام كان بجوارنا في الشارع الكبير فرح شعبي –هكذا نسميه– وكانت كما يقال إن السهرة صبَّاحي، يعني الحفلة حتى الصباح. في العاشرة أو الحادية عشرة يدلف العروسان إلى البيت بينما ترتاح الفرقة ساعةً، ثم تبدأ الحفلة بالعديد من الراقصات، ويهب العاطلون البطّالون من كل مكان يشربون الخمور والبيرة ويرقصون حول الراقصات، كنت أتسحب خلسةً وأصعد السطوح وأشاهد، وكانت كثيرًا ما تُنصب تلك الحفلات حتى تنتهي بخناقة قاسية يُسال فيها الدم، كان البطل ضحية ليلة كهذه، كانت مشاجرة تشبه أفلام (الأكشن)، وصراخ الناس خلف نوافذهم وهم يشاهدون المشاجرة كان عاليًا، كنت معتادًا على مشاهدة ذلك، علمنا بعد وفاة البطل أنه كان يسهر في حفلة بمكانٍ ما وضرب شابّين بقسوة، وقد دخلوا الحفلة عليه بعددٍ من البلطجية وتخلى عنه أصحابه ليقع فريسةً بين أيديهم حتى طعنوه بعد الحفلة وضربوه ضربًا مبرحًا حتى سال دمه وهو مُلقى على الأرض؛ وسيارة الشرطة سرعان ما أتت وطوّق الأمن المكان. كانت زوجته تعشقه جدًا رغم قسوته بحقها، وعلى الرغم من أنها كانت تعطيه كل ما لديها من مال لينفق على مزاجه الشخصي، ويعود إلى أحضانها بالليل أو بساعة من النهار ليكافئها بما كانت تحبه وتعشقه!

في مثل تلك الأجواء يظن الغريب أن سكان تلك المناطق لا يأمنون على أنفسهم ويعيشون التهديد ليلًا ونهارًا، بينما الحقيقة غير ذلك تمامًا، وهو أن هؤلاء آمَن من سكان العمارات والأبراج وسط المدينة، يخرج السارق ليسرق أمثالهم ولا أحد يدفعه عنهم، ثم يعود إلى مثل تلك المنطقة

كحارس أمين لا يجرؤ أن يدخل المنطقة لص أو سارق آخر، لا يخافون فتوّات المنطقة بل يحفظون لبعضهم خصوصيات منطقتهم!

والسبب الذي جعل هؤلاء يتخلون عن البطل أنه كان قويًا عليهم جسديًا، وما كان يعطيهم ما يريدونه من لوازم الوجاهة الشعبية؛ فكثيرًا ما كان يتشاجر معهم حتى أنهم لم يتركوا الفرصة للتخلص منه، وقال البعض إنهم تواطئوا مع الأغراب من البلطجية حتى دخلوا المنطقة وهم يأمنون على أنفسهم كل الأمان، بل سمعنا وقتها أن الشرطة كانوا على علم بما سوف يحدث في الحفلة من جريمة قتل بحق البطل، وقد كانوا من الممكن أن يتحركوا لإنقاذ البطل بعدما أخبرهم مرشدهم بوقوع الجريمة لكنهم أنهم جاءوا بعد القتل مباشرةً، بالإضافة إلى أن بعض أمناء الشرطة كانوا مصاحبين بعض بلطجية الحي، يمدونهم بالمعلومات مقابل امتيازات لهم ومصالح..

ألقت المرأة نفسها على زوجها المقتول، وتأخذ من دمائه وتلطم به وجهها، وبنتاها في ركن بعيد يبكيان بحرقة ونحيب يمزق القلب، كانتا دون العاشرة، واحدة ابنته والأخرى ابنة زوج سابق اختفى فجأةً بعدما طلّق أمها. تلك الأجواء حولك كطفل كانت كفيلةً بأن تجعلك إما مثلهم، أو تعاني مشاكل نفسيةً –على الأقل– لذلك كنت أحب الذهاب إلى القرية عند جدي وجدتي وأخوالي، لكن هذا بدايةٌ لمعاناة أخرى مع مجتمع منافر تمامًا لما كنت فيه (في حياة الحي الشعبي الصاخب) وكنت أتمنى العيش في منطقة وسَط بين هذا وذاك، لا صخب وفوضى دائمة، ولا هدوء وسكون قاتل من وقت الغروب!

لكن ثمة شيء كان يأسرني أشعر به تجاه الناس، الحزن لأجل معاناتهم، بكيتُ كثيرًا طوال الليل لأجل تلكم المرأة السمينة، بكيتُ، لحزنها وفقدِها حبيبًا جمعها به سرٌ وجداني، وحدها التي تقدره، وبكيتُ لأنني تندرت يومًا ما عليها، بعد أسبوع اختفت المرأة من الشارع، وسكنت بمكان آخر، لا أدري لماذا كنت أفكر كثيرًا في أمرها وأمر أطفالها؟

وكأني أردت أن أواسيها دون جدوى، لقد كان ينظر أهل المنطقة إليهما نظرةً مختلفةً عن نظرتهم إلى بعضهم، السبب صغر سن البطل العاطل، الأمر الذي كان يفسرونه على أنه قد تزوجها لأجل المال، وهي أيضًا تزوجته حبًا في قوته البدنية وجسمه –ولا شك في ذلك– ولكن ظلت تلك المرأة وزوجها في خيالي وذاكرتي زمنًا طويلًا، والآن وبعد مُضي عشرين سنةً ويزيد أحكي لكم عنهما، لمسْتُ فيهما رغم سوء حياتهما المتنافرة مع الفضيلة شيئًا لم أجده عند كثير من مدعي الفضيلة والمتمسكين بها، ولا يغيب عني –حين أذكر لكم ذلك– جارنا مؤمن الذي كان يبيع الكتاكيت على دراجة ويجوب القرى، كان متزوجًا منذ سنين طويلة امرأةً كانت لا تخرج من البيت إلا نادرًا، كانت تحبه حبًا جمًّا، لكنه بعد ذلك تزوج أخرى وطلقها لأنه يريد أن ينجب ولدًا يرث المال الذي ظل طوال حياته يجمعه. وتزوج فتاةً ريفيةً عانسًا، كان فرحًا جدًّا بها، وظن أنه وُلد هو قبل أن يولد له طفل يتمناه، وتحمل زوجته بعد عدة أشهر ليطير بالفرح إلى كل مكان، ويتحسر على عمره الذي مضى؛ ليته تزوج منذ عشر سنوات كما كان يقول، لتصاب امرأته التي طلقها بشلل نصفي من شدة غيْرتها وحسرتها على ما تسمعه من الناس أنها ضيّعت عمره دون أن تنجب له ولدًا، ثم يتبين بعد ذلك أن الولد ليس ولده، وأن زوجته كانت مرافقةً لجارٍ لهم بقريتها، وكانا يلتقيان بأية وسيلة،

فيموت الرجل بسكتة قلبية وتنتهي حياته بما أحَبه، كنت أراني أحلل وأفاضل بين تلك الصورة وذاك..

هذا المجتمع مليء بالمعاني الخفية العميقة كعمقه في القاع، وكذلك الإنسانيات الملهمة، وأراني أميل إلى ما يكمن في صدري بأن الإنسان مخلوق ضعيف يحتاج إلى الشفقة والرحمة أكثر من العقاب والقصاص والاضطهاد، بدليل قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾ [النساء:٢٨] وإن كنتَ تريد التأكد من ذلك فانظر إلى دوافعهم، ستجد الكثيرين يفعلون ما لا يريدونه ولا يرضونه في قرارة أنفسهم، غير أنها مجرد سلوكيات للتعايش فحسب، فلسفتهم هي أننا لن ندفع ثمن الانضباط وحدنا في مجتمعات غير منضبطة في الغالب، ودليلهم في عدم انضباط تلك المجتمعات. وأنا أستحضر في داخلي مجتمعاتٍ بعينها لا سيما العربية منها. تلك الحالة من اللاتقدير المناسب لاجتهادات البعض فكريًا وثقافيًا وعلميًا وحتى أخلاقيًا، في حين أنك تجد رعاة الإسفاف والخيبة هم نجوم المجتمع وفي المقدمة شهرةً ومالًا، وأحسن حالًا!

فهل من العقل والضمير أن يجوع طبيب أفنى عمره في العلم والبحث والاجتهاد لدفع المرض عن الناس أو ذاك الذي ما ترك مجالًا إلا تناوله بالقراءة والتدقيق للخروج بمفهوم، وتحرير معانٍ جديدة تنفع العقل وتهذبه لتعود بالمنتج الجيد على ذاك المجتمع، ثم يتخبط في الظلام لا يراه ولا يشعر به أحد؟!

وقِس على ذلك... فالمجتمع المنحط ينتج فهمًا منحطًا؛ ومن ثَمّ تنتج السلوكيات والعادات المماثلة لهذا الانحطاط المتوائمة معه..

فالدوافع حين ننظر إليها ربما نجد أن المجرم الحقيقي ليس من ارتكب الجرم الذي فعله بما يشبه الإكراه غير المباشر، بل المجرم الحقيقي هم أولئك المتسببون في إعانة الشياطين والأهواء على الناس الضعفاء، وتجد من هؤلاء الضعفاء من يقول لك متأسفًا:

العيال أخشى عليهم الضياع والهلاك، ولولا الديون ما اضطررت لذلك، ولولا أن فرصًا ما كنتُ الأنسب لها تخلت عني لأجل صاحب واسطة أو راشٍ؛ لما فعلت ما فعلت، وقد كنت أعاني لئلا تغلبني الظروف والصعاب، لكن ما باليد حيلة، ثم تجده يتحول من حالة الأسف تلك التي تُظهر الندم إلي التبرير، كأنه متعمد لينتقم ممن دفعوه إلى فعله السيء ثم يريدون محاسبته!

فأي انحطاط ووضاعة يعيشها المعذبون المهانون في مثل تلك المجتمعات المنحطة؟، وبالبحث وراء سيرة ذلك الشاب (البطل) الذي كنت أحكي عنه سابقًا، وجدت مأساة الحياة الدافعة لأن يعيش تلك الحياة؛ فقد كان طفلًا دون ثلاث سنوات يوم مات والده في السجن بعدما حُكم عليه بسبع سنوات بتهمة تبديد الأمانة، لأن عليه شيكات وإيصالات بسبب تعاملاته المادية. لست أبحث عن قصة الرجل ولذا فلن أستطرد في الكلام عنه، بل ما أردت قوله فقط هو أن والد ذاك الشخص تركه وهو ابن ثلاث سنوات، تركه منذ يوم أن قبع في السجن حتى ترك الحياة بعد عدة أشهر؛ لم يستطع التعايش بمرضه الذي لم يعرف عنه شيئًا وفاجأه كشبح حين ساءت نفسيته. وعن أمه فقد تزوجت وتركته يعاني فقد حنان الأبوة والأسرة والبيت الدافيء، كان زوج أمه رجلًا فظًّا غليظًا يُؤثِر أطفاله عليه مما دفعه إلى الهروب خارج البيت كثيرًا، ومع الأحداث المتوالية –وهو دون الثالثة عشرة– اضطر لضرب

طفل بزجاجة ففقأ عينه ليسكن الأحداث التي كان لها دور كبير في تكوين وتعديل شيء ما كان مبعثرًا داخله؛ وهو الشعور بأن عنده شيء يفعله بانتظام مما أثر فيه تأثيرًا جيدًا من ناحية على الرغم من خراب نواحٍ أخرى، لعل هذا ما جعله يحب بعد ذلك أن ينتظم في الساحة الشعبية ليمارس رياضته المفضلة (كمال أجسام).

شخص فقير لا أهل ولا مال ولا شيء؛ وهنا بدأت رحلة بحثه عن الدفء الذي وجده في أحضان النساء ليستعيض به ما فقده من حضن أبويه، ثم استقر به الحال إلى زواجه تلك المرأة السمينة التي كانت تمثل له صمام أمان لمعنى وجوده؛ بيتها التي كانت تسكنه بالأجرة ولا تكلفه شيء، ومالها التي ما كان يهتم من أي شيء تحصل عليه، كان أهم شيء عنده هو أن يحافظ على استقراره الناقص؛ إذ لا بديل سواه. ذلك المفهوم والمكبوت هو ما كان يجعله يهيج نفسيًا لينفعل بقسوة ويضربها حتى يهدأ ثم يتصالحا مجددًا، تلك المرأة أيضًا تشبهه كثيرًا، ولعل أحدًا لم يرض زواجها لبشاعة جسمها وسنها، لكن المهم قد وافق شنُهُ طبَقَتَها –كما يقال..

المقصود من الكلام أن وراء كل شخص حكايةً، ربما تكون حكايةً تثير الشفقة لنعذر –ولو قليلًا– أشخاصًا ما وَجدوا من يوجههم، أو يكون قدوةً لهم، عاشوا مُهمَلين بأي شكل من أشكال الحياة، وماتوا أيضًا مُهمَلين بأي شكل من أشكال النهاية، تلكم النهاية التي ربما تشبه كثيرًا نهاية كلاب السكك، وما أضعف الإنسان!

الناس في منطقتي الشعبية لا فهم ولا وعي يصل بهم لأن يفكروا بهذا العمق لفهم معاني النفس البشرية ودواخلها ومكبوتاتها ودوافعها، ولا فهم سلوكياتهم على نحو التفسير الصحيح، وطرق التعامل معها، بل ما أشد

وأقسى أن هؤلاء الناس يسارعون في تسديد لكمات الاتهام ونظرات الاحتقار إلى المهمشين من الناس، وكان من الأولى فهم الناس بعضهم بعضًا، وصبرهم وودهم تجاه بعضهم، فما أظلم الإنسان!

وأنا أتساءل الآن بعد مُضي ما يزيد على عشرين عامًا، أي النوعين أقل سوءًا وأكثر احتياجًا إلى الرحمة:

البطل وزوجته السمينة، أم صاحبنا الذي طلق رفيقة دربه وتزوج فتاةً فتحت فخذيها لفاجر كي تجلب له ولدًا تستولي به –مستقبلًا– على ما جمعه من أموال طوال حياته، وهو يتعامل مع ذاته على أنها ثور في ساقية؟

أترك لكم الجواب..

ولن أنسى أن أذكركم بنظرة أهل المنطقة المختلفة إلى الفريقين ظاهرًا، ولكن لا ينبغي أن نتغافل عن مجتمعات يقال عنها إنها مجتمعات (كِلاس) راقية، لا تختلف في الأخلاق عن تلك المجتمعات التي يلقبونها بالعشوائية، مع اختلاف الظاهر والشكل، لكن العنصر المشترك يكمن في الدوافع الأنانية والفردية التي تنتج كل سلوك غاشم يشبه في النهاية في شكله تلك المجتمعات العشوائية، هذا بالنسبة إلى مجتمعات فرعية داخل مجتمع جامع في دائرته الأكبر اتساعًا، لذلك فإن التصورات والاهتمامات العامة للمجتمع الجامع تلقي ظلالها لتؤثر نسبيًا على المجتمعات الفرعية داخلها، فيتناولها كل مجتمع بصبغته الشكلية لتتواءم معهم، –فعلى سبيل المثال– أنا أعيش في بلد يكثر فيها معدل الطلاق حتى قيل في دراسات وإحصاءات تناولتها وسائل الإعلام إن كل دقيقتين تقع حالة طلاق بمصر؛ ما جعلني أتساءل لماذا كثر الطلاق إلى هذا الحد؟

وبهذا المثال فقط دون استغراق أريد أن أوضح لك أن الفروق تكمن في الشكل فقط، لص بزي وزير أو رئيس كلص بزي فلاح أو عامل، جمعتهم نزعة السرقة مع اختلاف الوسائل والطرق التي تؤدي إلى تلك الغاية بما يتناسب مع الشكل فحسب.

أعود إلى السؤال عن كثرة الطلاق، ولست هنا في معرض التحليل، فالنص ليس نصًا فكريًا علميًا أو دراسة، بل هو نص أدبي أطرح فيه هواجسي ونزعاتي النفسية ومشاعري، وما يحوم في عقلي، ولذا فلن أسهب في شرح واستدلالات وإنما يمكنني الإشارة فقط. لو قلنا السبب الفقر واختلاف الناس بسبب حالة الفقر المدقع وتأثيراته المتعددة في الحياة الخاصة والعامة، فالسؤال هو:

لماذا أصحاب المال ومجتمعات الترف يقع بينهم الطلاق؛ إذ بالمال تُدفع النفقات والمستحقات للمطلقة، الأمر الذي قد يجعل الفقراء يفكرون آلاف المرات في الطلاق لعدم المقدرة على دفع المستحقات مما يهدد حريتهم، الأمر إذًا لا علاقة له بالمال كسبب رئيس، ولو قلنا الجهل سنذهب إلى نفس السؤال الفائت، فمجتمعات الترف أكثر تعليمًا وأحسن دراسةً!

إذًا هناك أسباب أعمق وهي التي يشتركون فيها جميعًا وهي الأقرب، وهي عدم قدرة الناس على الإجابة عن سؤال بديهي، وهو لماذا نتزوج؟

هذا هو السؤال الذي لو عرفنا الإجابة الصحيحة والمثالية عنه، ما وقعنا جميعًا –باختلاف طبقاتنا– في الخلافات الأسرية والطلاق، وما يترتب عليه من فساد عظيم، فلن تكون الإحصائيات بتلك الأعداد المروعة المرعبة.

كل ذلك التفكير الفردي والتصور الخاص لا ينفك عن التفكير والتصور العام للمجتمع، والعجيب أن تجد مثل تلك المجتمعات تتنافر فيها تصورات

الأفراد واهتماماتهم مع تصورات واهتمامات حكوماتهم لتجد العَلاقة بين الشعب والسلطة كالمحيط بلا وسيلة اتصال بين شاطئيه، والسبب الذي يتضح جليًا لمن يملك بجنيه واحد شيئًا من العقل، وهو أن تلك الحكومات لم تكن واعيةً بتصورات واهتمامات الشعوب لتنسجم تحركاتها مع الناس بشيء يحافظ على نقطة الاتصال، لكن من يفهم هذا إلا من وعى ودرس كيف تكون سياسة الناس وما يرتبط بذلك من نظريات وقواعد.

والأسوأ هو أن تجد نظامًا للحكم لم يتغير مع مرور الزمن واختلاف الأجيال ووسائل معلوماتهم، وأضف إلى ذلك وجود مجتمعات محيطة تغيرت أنظمة حكمها ووصلت إلى نتائج جيدة. ومن الإجحاف والإفساد أن تقوم جماعة أيًا كانت أيديولوجيتها وأهدافها ومواقعها أن تقلد من سبق لأنه نجح، ويكون كل هذا هو الدافع دون تفكير في فقه المرحلة ومراعاة ملابسات التغيير التي حصلت في نواحٍ كثيرة، ربما في تفكير الناس وتصوراتهم، فتجد هؤلاء بالكاد يصلون إلى نتائج مأساويّة قد تجعل السطحيين من الناس والذين لم يدركوا مواضع الخلل أن يسيئوا لمن سبق على الرغم من أنه كان ناجحًا فالحًا في أسلوبه!

السبب أنه لا يفكر أحد، والكسل يدفع الناس إلى التقليد والسير على منهج قديم كما يسير القطار على قضبانه، على الرغم من أن أقل طويلب علم يفهم كثيرًا من تلك الاختلافات الداعية إلى تجديد وحداثة في الوسائل كي نصل إلى نتائج جيدة، وهنا لن أخصص شيئًا بعينه حتى في الدين يجب تجديد الخطاب بما يتناسب مع الواقع الحديث ومراعات ملابسات التغيير المفاجئة والانتقالات السريعة وغير ذلك، وليس معناه أن نجدد الدين من جذوره لنخترع دينًا جديدًا كما يتوهم البعض، أو كما يسعى بعض المغرضين لركوب

الفكرة والتسلل إليها عبر غطاء اللفظ وما تخفي صدورهم أكبر، ممن وصفهم الرافعي الأديب –رحمه الله– بأنهم يريدون تجديد الدين واللغة والشمس والقمر!

أو من يريدون الهدم لكل موروث وأصالة وتقليد الغربيين كما قال فيهم الشاعر محمد إقبال:

"إن جديدهم هو قديم أوروبا".

ولكن التجديد يستلزم إعادة الشيء إلى ما كان عليه بعدما أصابه البلَى والعطب في نواحٍ مختلفة، كما يجدد أحدنا بيته –على سبيل المثال– فليس معناه شراء بيت جديد وإنما يظل البيت قائمًا على أصوله دون المساس بالثوابت الخاصة به، ولكن التجديد يكون ترميمًا فيما هو شكلي وسطحي وفرعي، لأن تركه هكذا يترك آثارًا سيئةً، تلك الآثار التي يصف بها الآخرون الإسلام بالإرهاب.

تلك الآثار هي التي تجعل من يحمل اللواء في الغالب متطرفين عدائيين.

تلك الآثار هي التي تجعل حاكم الدولة يوالي الآخر لمحاربة الإرهاب، بينما يرى الإسلاميون الأمر مختلفًا وهو موالاة الكفار لقتال المسلمين حتى ولو كانوا أصحاب كبائر، وهنا قد دخلنا في نفق مظلم من التصورات والأفكار والحرب الكلامية وما يليها وما يترتب عليها، وأمور كثيرة إثر ذلك.

تلك الآثار التي باعدت بين من يريد التعرف إلى الإسلام فوجد الصورة الأقرب هي الدماء والخروج على المجتمعات وتكفيرها وغير ذلك.

لا شك أن التجديد مطلوب في سياساتنا وفي الخطاب الديني على السواء، ولكل عملٍ أهله.

****

الفصل الرابع
كل واحد منا عدة أشخاص

هكذا أنا، فجأةً أمحض العاطفة لأتحدث معكم بها كشاعر حزين، وفجأةً أنقلب لأمحض العقل لأقول كلامًا كبيرًا يحتاج إلى وعي وإدراك، هكذا يكون المعذَّبون في هذا العالم، معذبين بعواطفهم الرقيقة وعقولهم الحادة، معذبين بالوعي الذي يقل معه حركات الذوات التلقائية، يشعر الواحد منّا كأنه صيادٌ محترف على مركبه وسط بحر هائج، يشبه الشيخ الصياد في قصة الشيخ والبحر للقاصّ (أرنست همنجوي)؛ حيث ظل عدة أيام في البحر ليصطاد دون ظهور أي أسماك بالماء، الحظ لا يحالفه، الطقس سيء، مشاعر الجوع والبرد والضجر وغير ذلك، ويوم أن حالفه الحظ أعطاه سمكةً ضخمةً، ولأنه صاحب إصرار وعزيمة قوية وإرادة استطاع رغم إمكانياته البسيطة أن ينجح في صيدها، أعطاه الحظ رزقًا لم يسعه المركب الصغير ففكر وفكر حتى استقر إلى فكرة جيدة وهي أن يربط السمكة العملاقة جانب القارب ويرجع بها إلى قريته، كان فرحًا كثيرًا لأنه نجح في الحصول على ما يريده، لأنه صبر ووجد أثر صبره وها هو الآن بعدما ربط السمكة جانب القارب وجدف عائدًا إلى قريته وهو مسرور، لكنه لا لم يعرف أنه على شفا معركة أخرى قاسية، انتقل من معركته النفسية إلى معركة واقعية مع سمك القرش الذي تجمّع على أثر الدماء النازف من السمكة، وهنا وبعد رحلة طويلة من الحرب بين الصياد والقروش، فصار صراعه للبقاء بعدما كان صراعه لإبقاء فضيلة الصبر؛ فعاد إلى القرية بعظام سمكة مربوطة بجانب القارب!

عاد بأثر نجاح لم يكتمل، فالإنسان منّا قد يحمل المَلكات والأدوات ويسعى للنجاح لكن ثمة عوامل أخرى غير محسوبة تتسبب في الفشل، هنا يدرك الإنسان أنه ضعيف أمام إرادة أقوى مهما تكن قوة إرادته، ويتساءل هل قدم ما عليه بجدية؟... هل كان بإصراره وصبره مصيبًا؟

ولو كان مصيبًا، فما أثر ذلك في ما كان من نتيجة وقد كانت هي نفس نتيجة رجل لم يصبر وعاد مستسلمًا بكل قوته ولم يبذل جهدًا ولا عرقًا، ولم يعد بفشل بعد معارك ومعارك لأجل النجاح؟!

أمام تلك الإرادة العليا تتوقف قدرتك على فهم الأشياء بشكل جيد، والدليل لأنك تساءلت عما سبق، لو كنت مكانه وعُدت من أول يوم مستسلمًا إلى بيتك دون صيد أليس كان لديك فرصٌ أخرى وأشياء أخرى لتفعلها دون أن تضيّع أيامًا وجهدًا، وتبذل كثيرًا في معارك غير مأمونة العواقب؟

هنا لو فكرت ستدخل نفقًا مظلمًا لا تستطيع الخروج منه، بل التفكير لا بد أن يكون في شيء إيجابي واحد، وهو بأنك كنت بطلًا مغوارًا حتى آخر لحظة، كنتَ من الممكن أن تموت بين فكوك القروش لكنك تحولت من صياد إلى محارب ناجح وشجاع جريء. لا شك أن التجربة ستعلمك ما ينفعك مستقبلًا، ولا تنسَ أنك عُدت بهيكل السمكة مربوطة: أي أن خصمك ما استطاع أن يسلب نفسك بالكلية حتى ولو اختطف منها ولم يتبقَ لك إلا وسام لتعترف بأنك جدير بمواجهة الحياة والصعاب.. لقد ألهمتني القصة كثيرًا رغم قصرها، فما أجمل الحكمة التي تضمنتها، لكني أتساءل سؤالًا مُلحًا، لماذا انتحر مؤلفها؟!

هل خنقته حكمته أم وجدها لا تساوي شيئًا في سوق الزمان!

على الرغم من أن (همنجواي) كان سوداويًا في بدايته في كتابة الروايات والقصص فإنه عاد ليجدد أفكاره بعد ذلك بالتركيز على تقوية النفسية، ولعل مشاركته في الحرب العالمية الأولى والثانية والحرب الأهلية الإسبانية هي ما أثرت في كتاباته، ولك أن تتخيل أن تلك القصة من عظمتها حازت نوبل في الأدب، لكن النهايات دائمًا تكون مفاجئةً ومأساويةً، خصوصًا مع عمالقة الفنون أحيانًا؛ لقد انتحر (همنجواي) كما انتحر والده من قبل، وانتحرت شقيقتاه وحفيدته!

ولا شك أنه قد فعل ذلك غيره من الكتاب والمفكرين والفلاسفة والفنانين، لقد ترك أكثرهم رسائل خرجت من وجدان شخص معلّق بين الحياة والموت، فاقرأ رسالة (فان جوخ) إلى أخيه قبل انتحاره، ولكن منهم من غلبهم المرض النفسي والعقلي، ومنهم من كان يائسًا فآثر الفناء، وهناك من تمسك بالحياة ولم يترك المغامرة معها حتى زاره الموت، وهو مثل: زوربا اليوناني الذي رفض أن يستسلم للموت فقام من رقدته يقفز بحرية وهو موقن بموته، كأنه لم يحب الاستسلام للموت أن يأتيه وهو نائمٌ على ظهره..

الناس متفاوتون في سياساتهم الحياتية وفي طرق التفاعل، ولكلٍ فلسفته الخاصة في الحياة والموت..

في الحقيقة موضوع الانتحار لم يكن منتشرًا بالعالم في عهود سابقة، ولو وُجدت نماذج وصور، ولكن بالمقارنة بهذا العصر فإن النسب مرعبة تتفاوت من مجتمعات لأخرى ولكثرتها ببعض البلدان راحت الدولة تصنع لهم أماكن خاصةً بالانتحار –لمن أراد– بعيدًا عن أن يوقف حركة المرور، أو يثير شبهات جنائية حول المحيطين به، ويعطل كثيرًا من المهام بصرف الانتباه إلى احتمالات تسعى الشرطة للتحقق منها. وفي النهاية لا شيء،

لكن إن كان الانتحار هو لفظ مقترن في أذهان الناس بصورة إنسان قتل نفسه وأودى بحياته بأي طريقة، فهل يشمل اللفظ صورة من أودى بحياته متعمدًا لكن تحت وطأة هلاوس لا يسعه الإدراك الصحيح معها؟

وكذاك الشخص المتهم في قضية معينة يرى أن إزهاق روحه لأجلها هو عين الشجاعة والتضحية، وعليه فالعاقبة جيدة بما قدمه للدافع مما يحيي ذكراه بعد موته مقترنًا بالشجاعة والإقدام والتضحية، كمن يقتلون أنفسهم ويقال عنهم "فدائيون" ويسمى الفعل بالعمل الفدائي العظيم، وهذا غالبًا ما يحدث في الحروب والمعارك، سواء كانت معارك رسميةً تحت لواء الدولة أو معارك تحت لواء آخر..

ما هي إلا تساؤلات، وبالطبع أعرف معنى الفداء، وبه يتكوّن لدى البعض تصورات تجعلهم ينتحرون وهم يحسبون أنهم فدائيون يحسنون صنعًا، كهؤلاء الذين يفجرون أنفسهم وسط الناس بلا جناية منهم، أو في مؤسسات عامة وخاصة لمناهضتهم الدولة وابتغاء التنكيل بها، وإبراز القوة والقدرة على تشتيت الانتباه لتحقيق مكاسب مستهدفة، فالذي أقصده أن كثيرًا من المصطلحات والكلمات المستعملة بكثرة شأنها شأن ما تحويه تلك الكلمات والمصطلحات من معانٍ يشوبها الغموض أحيانًا وعدم الوضوح، لذلك فاستعمال الإنسان العادي للغة ليس كاستعمال الخاصة من العلماء والباحثين والمفكرين ومن في دربهم؛ فتجدهم يكثرون الإسهاب في شرح المصطلحات وما مرت به من تطورات بعد التعرض لنشأتها وما يسمى (إيتمولوجيا اللفظ) حتى يخرج المعنى من اللفظ واضحًا لا يحدث به سوء فهم متباين بين المستعملين له، خصوصًا لو كان اللفظ فضفاضًا يمكن التلاعب به للاستدلال على معانٍ ربما تتنافر مع بعضها مضمونًا،

أو إن كان لفظًا مُسلمًا به لكثرة استعماله على ألسنة الناس ليكون له معنى متصور بشكل تلقائي دون الرجوع إلى أي استفسار عن المقصود، والناس يحبون التعبير عن الكثير بكلمة واحدة؛ إن قال أحدهم مصطلحًا ما تتفجر المعاني منه في ذهنك مباشرةً لتتعرف إلى المقصود منه، ولكن كيف يحدث ذلك لو لم يتم التعرض بالتحليل الدقيق للمصطلح الشائع، وهناك فساد قد يُحدِث تنافر المقاصد وانقطاع الاتصال وضياع كُنه اللغة كوسيلة اتصال؟ وماذا بعد أن يفقد الإنسان اللغة، والإنسان هو اللغة، واللغة بيت الوجود كما يقول الفلاسفة،

فلك أن تتخيل أن يجلس رجل دولة مع رجل دين يتزعم جماعةً ما، ومعهم رجل حزبي معارض وعدة أشخاص آخرين من جهات مختلفة، وكان الكلام فيما بينهم عن ضمان حرية الفرد.. ومصطلح الحرية واضح لفظيًا وضوحًا تامًا، ويقال إن الحوار عن الحرية، والبديهي أنك حين تسمع هذا يتبادر في ذهنك المعنى الحقيقي، وهو الحق الطبيعي في الحرية التي وهبها لك الله الخالق، والتي كفلها لك القانون الطبيعي، لكن رجل الدولة قد يرى مفهوم الحرية هو أن أمنحك حرية الاختيار في أن تُنهي حياتك إما بالجوع وإما بوسيلة أخرى إن كنت مارقًا عن نظام الحكم ولم ترد الاعتراف به. فالحرية تكون عند الديكتاتور بمعنى التبعية للدولة دون تفكير، ولذا فإن محاولات التفكير واستخدام العقل ضد عقل الدولة يُعد عند الديكتاتور جريمةً، في وقت أن مفهوم الحرية عند رجل الدين هي الانصياع لأوامر الديانة قولًا واحدًا، وألا حرية إلا في عبوديتك لرب الكون، وهذا يستلزم الامتثال لكل شرائعه وأوامره ونواهيه. ولك أن تتخيل لو كان نظام وقانون الدولة يختلف مع شيء من تلك الشرائع، ومفهوم الحرية

عند رجل الدين أن تتحلل من الحرية التي هي بمفهوم الدولة، وفي الجانب الآخر سيستعرض لك الحزبي مفهومًا آخر للحرية، وغيره... فعن أي شيء يسفر اجتماع كهذا يستحيل معه أي نتيجة جيدة لاستحالة بناء أرضية مشتركة لمفهوم مصطلح الحرية.. قِس على ذلك مصطلحات كثيرة، ربما يسمعها الناس مرارًا على ألسنة الساسة والإعلاميين وغيرهم؛ فيتوهمون المعنى الذي بدر في أذهانهم وهو المعنى القريب للفظ، وربما يقصد المتحدث شيئًا آخر، وهنا يكثر التشكيك وفقدان الثقة بين الحكومات والشعوب لعدم وجود عوامل اتصال في معاني المصطلحات المستخدمة؛ سقطت اللغة بينهم دونما اتصال، فكيف يكون الفهم أيها العقلاء؟

فيما سبق استعرضت لكم اختلاف التصورات العامة للناس مع تصورات الحكومات وسبب انقطاع الاتصال وما يترتب عليه، هل ما زلت متذكرًا؟

أضف إلى تلك النقطة اختلاف المفهوم حول الكلمة واللفظ..

أعود بكم بعد هذا الاستطراد إلى الانتحار؛ فهو مصطلح شائع يحتوي على معنى قتل الإنسان نفسه بأي وسيلة، لكن لو أي ميتة أخرى خلاف ذلك لا يسمى انتحار، وهنا تعرض عالم الاجتماع الشهير (إميل دوركايم) للانتحار، وسأل سؤالًا مهمًا وهو:

كيف لو وجدنا عوامل مشتركةً بين تلك الميتات العادية في مفهوم الناس وبين ما يسمى انتحار؟

ومن هنا يقول إن المقارنة بين الأشياء هي أفضل وسيلةً للخروج بدقة المفهوم، وأي بحث لا يقوم على المقارنة لا يبلغ غايته..

وإذا كان مفهوم الانتحار عند الناس هو بذل الشخص جهدًا في قتل نفسه فيستلزم جهدًا عضليًا، فهناك ما يوصل إلى نفس النتيجة عندما يمتنع

الانسان عن شيء ضروري كالدواء أو الطعام والشراب، وهنا كانت النتيجة هي نفس النتيجة وهي تسبب الإنسان في خروج روحه من جسده، وعلى ذلك فهل المُضرِب عن الطعام لأي سبب من الأسباب يكون منتحرًا لو فاضت روحه بذلك؟

على الرغم من أنه لم يقتل نفسه برصاصة أو بسيف أو بالتردي من أعلى مبنى مرتفع أو الانزلاق تحت إطار سيارة –مثلًا..

فالإفراط في استعمال الكلمة من حيث مضمونها، وكذلك استعمالها دون تكوين مفهوم محدد واضح ودقيق يُفقد اللغة هدفها ويُفقد معها التواصل بين الناس بالعقل، ويبقى التواصل بوسائل أخرى همجية كتواصل الحيوانات بلا لغة..

ولكن مع كل تلك التساؤلات التي أردت بها تحريك عقلك واستدعاء تفكيرك وتصورك، أحب أن أغلق الكلام بما أومن به كرجل مسلم يؤمن بأن كل شاردة وواردة وحركة وساكنة في هذا الكون بيد الله؛ وهذا ما تضمنه القرآن في الآية الكريمة: (وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ) [الأنعام:٣٧] فإن الانتحار هو مفهوم قتل النفس متعمدًا بذلك إزهاق الروح ومفارقة الحياة بشكل مباشر بسلاح أو بغيره أو بأي وسيلة، أو من امتنع عن دواء ضروري للحياة، أو حتى تقدم بفعل أو قول يعلم معه علم اليقين أن الثمن هو حياته دون شك وفعل ذلك فهو قد قتل نفسه متعمدًا، وإن فَعله جهلًا منه بالعاقبة (وهي موته) فلا يعد انتحارًا بالمعنى المفهوم الشائع، ولكن هناك ما هو واضح لا يحتاج إلى طول نظر كمن يقتل نفسه بأداة أو يتردى من فوق جبل أو عمارة فهنا قصده لا مرية فيه؛ إذ ليس معقولًا أن يجأ أحد نفسه بحديدة

كتجربة، أو يتردى من فوق برج مرتفع وهو يظن أنه سيطير، أو يحتسي سُمًا وهو يظن أنه مضاد حيوي، وهنا قتل النفس بعمد أقرب بقوة إلى المفهوم ويقال هذا انتحار، أما غير ذلك من قتل النفس غير المباشر كترك الدواء أو قول كلمة فقد بها حياته فقد يكون من الممكن أنه لم يدرك العواقب؛ ولهذا لا يمكننا أن نقول "منتحر" كرجل مريض نفسي لا يدرك أن قفزته من أعلى بناية سوف تفقده حياته، وظن أن الأرض قريبةٌ منه، فلا يكون منتحرًا.. وتلك الشعوب التي تموت جوعًا وفقرًا وقهرًا بتسليمها كل شيء بيد حاكم ربما فاسد أو جاهل أو خائن، لا شك أن هذا قد يكون تصور المريض الذي ترك الدواء يأسًا فمات، وليس كالمريض الذي قفز في المثال السابق لأنه مريض معذور بمرضه، أما من ترك الدواء ليس معذورًا بامتناعه عنه بل حُق عليه الموت.

****

الفصل الخامس
في الجيش

من أهم محطات حياتي التي تركَتْ فيَّ بالغ الأثر حين كنت عريفًا في الجيش، وكان هناك تراشق بالنظرات والكلمات بين عريف مجند وعريف متطوع أو صف، فالصف تلك هي وظيفته، أما المجند بالطبع يخدم عدة أشهر –طالت أو قصرت– ثم يعود إلى المَلكية ليستأنف حياته. كنت جنديًا في سلاح "الأسلحة والذخيرة" مررت بفترة التدريب القاسية إلى مرحلة القوة الأساسية، لم يكن عندي شيء أفعله إلا أن أعد الأيام والليالي، سواء لاستعجال الإجازة كعملية إحصائية صغرى، أو عملية إحصائية كبرى للإجازة التي لن أعود منها إلى الجيش مرةً ثانيةً، ليس بُغضًا في الخدمة العسكرية، فما أوجب من أن يخدم الواحد منّا وطنه! بل أن يضحي لأجله بالغالي والنفيس، ولكن هي الرغبة في استئناف الحياة الطبيعية التي هي حياتك الأساسية، ولا سيما إن كنت مسئولًا عن أسرة وعمل ما؛ فتعد الأيام والليالي وأنت آخذٌ بعنان فرسك في سبيل وطنك بخدمتك داخل الجيش.

استلزمَت المرحلة الأولى –كالعادة– تأهيل الشخص المدني ليكون أكثر انضباطًا ومسئوليةً ليتلاءم مع مرحلته العسكرية، تلك المرحلة التي تتطلب القسوة بعض الشيء لتزرع فيك الصبر والتحلي بأعلى درجات الانضباط والثبات الانفعالي، بالطبع مع مرحلة عمرية يتمتع فيها الشاب بالحماسة والقوة والعنفوان، وقد ترك علاقاته وعاداته وشخصه القديم ليستحيل مقاتلًا ملائمًا لكل الظروف، المرحلة التي كانت تجعل الشباب في حالة هم وغم يظهر عليهم طوال الوقت، لأن من البديهي أن الإنسان يحب أن يشعر بالراحة والحرية، الأمر الذي كان يشغل ذاك المسن الشاويش

(جمال) لأن يتمشى ليلًا حثيثًا يراقب ما يعرفه ويتوقعه من تصرفات الجنود، فيجد واحدًا منهم يبكي كالثكلى عل ما فاته من الليالي مع الأصدقاء على المقهى، وطعام أمه الشهي الذي استبدل بخبز وعدس وفول، الأنفة عن ذلك الطعام تعني الموت جوعًا. كنت مستلقيًا على ظهري أعلى السرير وسمعت وابلًا من السباب والشتائم موجهةً إلى ذاك الجندي الجديد، كانت رغم حدتها فيها شيء من الفكاهة جعلتنا ننفجر من الضحك على وصلة السباب التي نالها ذلك الشاب المُرفّه، حتى بدأ وصلةً ثانيةً يطربنا بها من البكاء والعويل وسط مواساة البعض ممن انخرطوا بقوة من أول أيام في العسكرية. كان كل شيء بحساب دقيق وميقات محدد؛ الانضباط كالسيف الحاد على الرقاب لا يسلم منه من لم يلتزم به، وهذا عادي جدًا، لا جديد فيه، هذا الجندي استطاعت عائلته التواصل مع ضابط كبير ليوصي زميله قائد المركز كي يجعله في خدمات مريحة، وكان من سوء حظ الجندي أن ذلك القائد العميد لا يحب تلك التصرفات من التوسط للجنود، ويرى عبثية ذلك؛ فينقلب السحر على الساحر لتكون التوصية ما هي إلا سبب في أن يعرفه القائد ليأمر بوضعه في أقسى الخدمات والأشغال، ناداه القائد يومًا وسط طابور الصباح، وقال له أمام الجمع:

هل تعرف فلانًا؟... -يقصد الضابط الواسطة- فيقول الجندي: "نعم يا فندم، هو صديق عمي رجل الأعمال صاحب شركة كذا" فيقول له: "انزل (ستة استعد)" يعني وضع تمرين الضغط، وكان هذا التمرين أسلوب عقاب، وغالبًا أساليب العقاب كانت تمارين شاقةً ترهق الأعصاب والعضلات ليصاب المعاقب بها بألم شديد، ثم يعود الألم إليه بعد ذلك بقوة، حينها ضحك ثلاثة جنود بشكل تلقائي، النكتة في أن الجندي توقّع مكافأةً،

وقد تسبب الضحك في جعلهم في وضعية (ستة استعد) طوال الطابور حتى نهايته. كلفني ضابط باصطحاب الأربع للأشغال؛ حيث أمرني بالذهاب بهم إلى مقدم الأمن في مكتبه، وقال: "اذهبوا إلى مكتب المقدم فلان وهو سيكلفكم بالعمل" ولما ذهبنا إلى المكتب وجدناه مثل جبل من طمي أسود وسط بقعة صفراء شاسعة، بالطبع أقصد الرمال من حولها، خرج المقدم بزيه الأنيق ونظارة الشمس على عينيه وهو يمضغ آخر لقمة طعام، وقال: "أرأيتم هذا الطمي؟" هززنا رؤوسنا برفق، فصاح بشكل مفاجئ وكرر: "أرأيتموه؟"

قلنا بصوت عالٍ: "نعم يا فندم" قال هذه هي الأدوات، وأشار إلى جانب المكتب، كان قد جيء بها من مخزن الخامات، وقال: "الطمي كله يُفرش حول المبنى ويُسوَّى، أمامكم ثلاث ساعات، ثم تركبون مع الشاويش (عاطف) الجرار وتجمعون الصخور الضخمة من داخل الجبل، وترصونها حول الطمي مثل السور بشكل جمالي لطيف، أفهمتم؟ ثم بعد ذلك تذهبون بالجرار مرةً ثانيةً إلى الخزان الرئيس لجلب الماء، وترشون الأرض تمهيدًا لزراعتها، وعندي بالداخل عدة أنواع من البذور جلبها جندي من الصعيد معه وهو عائد من الإجازة، ستزرعونها، وسيشرف عليكم هذا الجندي الفلاح، سأبعث إليه ليأتي من خدمته، أمامكم ست ساعات لفعل ذلك، الساعة الآن التاسعة صباحًا، الغذاء في الثالثة مساءً، قبل الغذاء بعشر دقائق يجب أن يكون العمل على أكمل وجه، وإلا فلا غذاء يتبقى لكم، وسوف أدخلكم السجن، مفهوم؟

نظر بعضنا إلى بعض وقلنا له: "مفهوم يا فندم"، كلفنا ذلك المقدم بعمل لا يطيقه الجن؛ بكى صاحبنا كعادته طوال عمله، كنا نتندر عليه ونضحك كي

نمرر الوقت ولا نشعر بقسوة العمل، وبالفعل استطعنا فعل كل شيء قبل الغذاء بعشر دقائق كما أمرنا المقدم، لم يشكرنا بالطبع، وقد كان كل واحد فينا يتخيل أنه سيحصل على إجازة كمكافأة، هذا ما قاله لنا الشاويش (عاطف) وعلمنا أنها خدعة منه لكي يستخرج كل ما بداخلنا من طاقة، وتفاجأنا بأن المكافأة هي أن نكرر العمل كل يوم عند مكتب كل ضابط..

في اليوم الثالث، لم يجد صاحبنا بدًا من ترك العمل والذهاب إلى (الكانتين) دون إذن، بالطبع لم يأتِ الليل إلا وكان في السجن حيث الصول ناجح (حكمدار السجن) وما أدراكم ما الصول ناجح! كأنه خُلق خصيصًا لتلك المهمة، ظن صاحبنا المُرفّه أن السجن راحة مما هو فيه، لكنه وجد اثنان يعملون عملًا مماثلًا هنالك ليبدأ العمل معهم، ويكون العمل مُوزّعًا بين ثلاثة؛ أَشق مما كان فيه معنا.

وقت الغذاء نقف كقطار طويل منتظم حتى نحصل على كمية قليلة من المكرونة وقطعة لحم لا تزيد عن مئة جرام وملعقتين من السَلطة، وكنا قد انتهينا من العمل الشاق، بعد الغذاء سنذهب إلى العنابر كي ننام ثلاث ساعات، ومن عنده غسيل سيقتطع من تلك السويعات ليغسل ملابسه وسراويله الداخلية وجواربه، ننتظر وقت الراحة بفارغ الصبر. بعد الغذاء جاء الشاويش واصطحب أربعة جنود لغسيل الأواني وتنظيف المطبخ، كان صاحبنا التعِس منهم، نظر إليّ وأنا أتسحب كي أفر إلى النوم قبل أن يضمني معهم، وهو يقول: "يا ابن الكلب يا محظوظ!"

كان القطار الحربي مختلفًا عن أي قطار ركبته في حياتي، ربما لأن روح المدنية غائبة عنه؛ الكل عساكر من حولك، من يبيع الشاي عسكري، ومن ينظم الناس وتحركاتهم عساكر، ومن يستقبلك حتى على رصيف القطار

بعد الوصول عساكر، كل هذا كان يترك فيك أثرًا مباشرًا من الشعور بالغربة والغرابة، هذا الشعور لا يشعره إلا من عاش في المدنية واعتادها، لذلك فالجميع يحسبون ألف حساب لتلك المرحلة –ولا بد– حتى يتمنى أحدهم لو كان وحيدًا لأبويه، أو كان معاقًا ليُعفى من الخدمة، أو كان صاحب سبب يُخرجه من الخدمة أيًا كان، ولكن مع كل هذا فجميعنا مستفادٌ من دروس تلك المرحلة، دروسٍ مهمة في الحياة مدة سنة كاملة، حتى إن الناس يقولون لأبنائهم إنه من لم يتعلم شيئًا في الحياة سيعلمه الجيش، يقصدون الخدمة العسكرية، ومن داخل الجيش نفسه يقولون لنا إن من لم يعلّمه أبواه فسوف يعلمه الجيش!

لذلك فإن المرحلة العمرية التي يؤخذ فيها الشاب للخدمة هي مرحلة مهمة في حياته؛ حيث لم يسبق له غالبًا الاحتكاك بالحياة والثقافات المختلفة، فمنذ طفولته مرورًا بمراحل المراهقة والصبوة ومراحل الدراسة حتى يتخرج وهو في محيطه الضيق ببيئته، يأخذ معلوماته من نفس أبناء بيئته، لذلك عند دخول الجيش واحتكاك الجميع ببعضهم باختلاف فئاتهم وطبقاتهم وثقافاتهم المنبثقة من عادات وتقاليد مختلفة لمجتمعاتهم، فإن ذلك مع أمور أخرى وقساوة وظروف محيطة تصنع منه شخصًا صلبًا جامدًا مغايرًا، وإن تعرض حتى لمساوىء في المعاملة التي –في الغالب– تكون ممنهجةً، فالخدمة العسكرية مصنع للرجال ولا شك في ذلك، وما من صديق تعرفت إليه في تلك المرحلة المهمة في حياتي إلا وله بالغ الأثر النفسي المتسبب في عمق ووطادة تلك العلاقة، لأن الظروف الشاقة تصنع أصدقاء حقيقيين؛ كل منّا يسعى لأن يكون في عنبر صديقه المقرب، حتى لو سيدفعه ذلك للاحتيال وتعريض نفسه للعقاب، لأن كل مجموعة من الجنود بحسب

اختصاصهم الذي يجمعهم لهم مبيتات واحدة، بالإضافة إلى العنابر المجمعة للجنود غير المختصين بشيء، وكنا بحسب تخصصاتنا العملية والدراسية نتميز رغم المسئولية بقربنا من الضباط والتعامل معهم مباشرةً، وهذا يُسهّل علينا بعض المطالب المشروعة دون أن نستغرق في اتخاذ وسطاء من ضباط الصف الذين كثيرًا ما كان الجنود يشعرون بالغيظ منهم من سوء معاملاتهم، وأيضا يثنيك عن أن تحتك بضباط الصف كثيرًا مما يجعل بينك وبينهم خط أمان، بالطبع كنت أنشغل كثيرًا في أوقات راحة الجنود العاديين لكنهم أيضًا كانوا يعملون أعمالًا شاقةً وينزلون خدمات بعيدة وقاسية في ظروف الطقس المختلفة، وهذا بالطبع ما جعل أحد الضباط يرقيني من جندي إلى درجة عريف لأتمتع ببعض المزايا وأهمها هو أنه لا يُسجن العريف بل يُحجز فقط من نزول الإجازة. البعض كان يقول لا فارق عندنا من سجن أو حجز من إجازة، فالأمر سيان؛ في الحالتين لن تنزل إجازتك لرؤية أصدقائك وأهلك وزوجتك إن كنت متزوجًا، وتتمتع بأكلات شهية ونوم هانيء لعدة أيام. فكان كل واحد وعشرين يومًا تنزل دفعةٌ منّا سبعة أيام إجازة، لكن السجين أو المحجوز لن ينزلا إجازة، لكن كنت أُحتجز وأنا عريف من الإجازة لكن بعد عدة أيام يُفرج عني لأحصل على استمارة أو تصريح النزول لأهلي، بينما السجين يقضي أيامه ثم من يوم خروجه من السجن يُعد له واحد وعشرون يومًا، ولو في اليوم العشرين دخل السجن مدة عشرة أيام؛ سيُعد له من بعد العشرة أيام واحد وعشرين يومًا وهكذا. كنت منذ ترقيت عريفًا وأنا أشعر بفخر رهيب بين زملائي الجنود؛ إذ كنت مرتفعًا درجةً عليهم، وفي بداية الأمر لم أكن أعرف الفرق بين عريف مجند مثلي وعريف متطوع؛ مثل: (عريف عبد الحميد) حكمدار الحملة، وهي سيارات ومركبات الوحدة

كلها، مما جعلني في مشادة بيني وبينه؛ أقول له: "أنا عريف وأنت عريف" كإشارة مني إلى أن الرؤوس متساوية، وفي هذا اليوم كنت مهددًا بالعزل إلى درجة جندي كما كنت، لأنني قلت ذلك، ولكن مَر الأمر بسلام بتدخل أحد الضباط. تعلمت الكثير من الخبرات المختلفة، ولا أنسى إذ كلفوني بتمديد خط أنابيب مياه من دورات مياه بعيدة (تجاه المخازن) إلى دورات مياه جديدة تبعد تقريبًا مئتي متر، على أرض ليست مستويةً، ما كنت في ذلك الوقت أعرف شيئًا في التعامل مع تلك المعضلة في حين كان ضغط المياه ضعيفًا. جاءني ضابط صف كان قد تخرج في كلية الآداب، قسم الجغرافيا شعبة مساحة، كنت أول مرة أسمع عن علوم المساحة وارتباطاتها بالخرائط والأعمال الهندسية وعلوم أخرى مرتبطة بها. قال لي وقتها –وكان معي عدة جنود يعملون تحت يدي، يجلبون الخامات من المخازن ويفعلون ما أحتاجه منهم–: "علينا يا مجند سعيد" نظرت إليه فجأةً قبل أن يكمل كلامه، ضحك من التفاتتي –وكان لطيفًا– وقال: "لا تؤاخذني يا عريف سعيد" فابتسمت بامتنان أن أعطاني حقي بتسميتي عريفًا، قال مستأنفًا: "لا بد من عمل تسوية لهذا السطح للحصول على أقل نسبة ارتفاع، ومراعاة الميول لتدفق المياه، وأنا أتذكر من أيام دراستي بالكلية بعض الطرق ولا بد من الاجتهاد في البدائل والحلول؛ حيث لم يكن معنا جهاز ميزان وقتها لأخذ منسوب الأرض وعمل الحسابات اللازمة، ولم أفهم كثيرًا مما يقول فيما يخص تخصصه بالكلية، ورأيت منه أنه متخيل أنه على وشك تصميم مشروع بنية تحتية عملاقة؛ إذ شرح كثيرًا وقام بالتنظير والإشارة هنا وهناك، والذهاب إلى أعلى منطقة على سطح الأرض ليدب بقدمه كإشارة إلينا من بعيد، ويستأنف شرحه، ثم يعود لأقل نقطة انخفاضًا،

ويقول: "هذه المنطقة ستُردم" وكأنه قد أصابه حنين للدراسة؛ إذ هو الآن في وظيفته العسكرية مسئول عن مخزن الوقود فحسب، وكل ما كان في تصوراتي لتصميم المطلوب مني أن أمدد الأنابيب من وإلى فقط مع إحكام ربطها ببعضها وبالمنبع إلى المكان المستهدف، ومن ثم التوزيع للأنابيب الفرعية تلقائيًا. يومها جاء القائد يتمشّى عصرًا ووقف جوارنا ولم يحدّثنا في شيء، يتكلم مع الشاويش فقط الذي أخذ يشرح له مجددًا كأنه مدير المشروعات، ويهز القائد رأسه وهو يشرح له، ثم يقول القائد بصوت مرتفع كي يُسمعنا: "لا بد من الانتهاء بأقرب وقت لأن هناك مسابقةً من المنطقة لتكريم أفضل وحدة، ولو حصلنا على المسابقة سأمنحكم يومين إجازة، لقد زاد إحباطنا بمعدل كبير وقتها من قوله (يومين إجازة). المهم حفرنا وردمنا وقصصنا ومددنا، والعرق يسيل مدرارًا حتى أنجزنا كثيرًا من العمل. وفي اليوم التالي أنجزنا بقية نصف العمل بعد معاناة بدنية وذهنية، وفي النهاية وبعد مرور خمسة أيام كنا قد أنهينا العمل؛ سمعنا نقل القائد إلى مكان آخر، وأن قائدًا جديدًا سيأتي بعد عدة أيام، وقد حدث ذلك بالفعل ولم نحصل على يومين إجازة، كنا قد قابلناهم بإحباط شديد بعدما خاب ظننا أن الإجازة ستكون أربعة أيام على الأقل، لم يكن من بينهم متزوج غيري، شعورهم بالغضب لضياع فرصة الإجازة كان عاديًا، الذي لم يكن عاديًا هو ما شعرت به أنا؛ فرغبتي الملحة في حضن دافىء لم يدم معي طويلًا قبل أن ألتحق بالخدمة العسكرية جعلني أُرقّى إلى درجة عريف. ظللت أفكر وأتخيل وأعد الأيام والساعات، الآن قد ضاعت اللحظة الجامعة بيني وبين مكبوتي الذي أوشك على الانفجار. بالليل وأنا متمدد على سريري تزداد تنهيداتي بعنف، أتقلب يمينًا وشمالًا، أتحسس بين فخذي شيئًا ساخنًا، أتذكر كل ليلة

ضاجعت فيها بكل التفاصيل، أتألم، أتخيل، أحاول بفشل كبح جماح نفسي، أحاول صرف انتباهي المُلح، وبالنهاية لا بد أن أنام حزينًا لاستقبال حلم ربما يوقظني أشعر بالراحة بعد دلق المكبوت..

بينما نتجمع بعد طابور السلاح في مجمع الخدمات –في إحدى الليالي الشتوية– نشاهد مسلسلًا كل مساء، كنا نشعر بشغف حال مشاهدة حكاية هؤلاء الممثلين داخل المسلسل، كما لو كنا نتأكد أننا ما زلنا في هذا العالم، كأننا نقول ثمة غياب قصير المدى وسوف نعود إلى حكاياتنا الشبيهة في الخارج. صوت الشاويش (نوبطجي) في الخارج ينذر من سيتأخر عن دخول الخدمات على الأبراج، همهمات الجنود خلفي وهم خائفون من دخوله المفاجئ؛ إذ كان من المفترض أن يكونوا بخدماتهم، أخفوا السلاح تحت المقعد تهيؤًا لدخول الشاويش، يقول أحدهم: "لو دخل إلينا سنقول إننا خدمة ثالثة" بالطبع الخدمات الأولى تتسلم السلاح وتذهب إلى الخدمة في أماكنها مع الخدمة الثانية التي لا مبرر لوجودها داخل الوحدة، أما الثالثة فهي التي تبقى حتى خروج العشاء من المطبخ ليأكلوا ويأخذوا نصيب الخدمات معهم إلى الداخل.

الساعة الخامسة مساءً، يجتمع الجنود في مجمع الخدمات لمشاهدة حلقة جديدة من المسلسل. الأفراد في الخدمة من بعد طابور السلاح، والخدمة الثالثة تنتظر خروج العشاء كما حكيت لكم. الكآبة مع دخول الليل شعور أساسي خاصةً للمتزوجين والدفعة المستجدة، تزعج الصمت خشخشة السلاح بيد الجنود أصحاب خدمات البوابات والسلاح ومكتب القائد، بقي لهم عشر دقائق وينتشرون للوقوف في أماكنهم؛ صوت الشاويش (نوبطجي) في الخارج ينذر المتأخرين عن خدماتهم كالعادة، ويوبّخ جنديًا

لم يذهب إلى برج المراقبة داخل الجبل رغم أنه خدمة ثانية، ولأنني كنت عريفًا حكمدارًا للخدمة كنت أعاملهم بقسوة؛ فآمرهم بالدخول جميعًا وأخبرهم أنني سوف أدخل إليهم بالطعام لاحقًا وكنت أتأخر عنهم متعمدًا، وذلك لِما حدث منهم من مخالفات تسببت في توبيخي بقسوة من حكمدار الأمن؛ كنت طيبًا معهم وذلك هو السبب. الأبراج بلا نوافذ ولا زجاج، والرياح ترتطم بأجسامنا مباشرةً ولا يشفع لنا ما نلبسه من ثياب كثيرة وعشوائية، الفئران كانت تتشاجر حولنا ونحن نائمون على كسرات خبز تمثل لها الصراع من أجل البقاء في جبل مميت. في الليل؛ حيث يسود الصمت الشديد وتغيب الرؤية في الظلام، ولم يبقَ غير خيالات يصنعها الخوف، ننام ملتفين في بطاطين مليئة بالتراب، أنبه حامل السلاح مكررًا: "انتبه، إياك أن تنام؛ الصول (عبد الحميد نوبطجي) في الخدمة اليوم وهذا شخص مؤذٍ، ابن كلب"، فيقول لي: لا.. اطمئن. فأغط في نوم عميق، أغرق في النوم بعدما انغمس جسمي في الدفء، وفجأةً صياح وسب وشتم!

ارتجف قلبي فقمت منتبهًا لأرى قائد الكتيبة ذاته تحت البرج، يوجه ضوء الكشاف نحوي، والمفترض ألا أنام بحكم أنني مسئول عن تسعة جنود وثلاثة أسلحة وثلاثة أبراج في الجهة الشرقية للكتيبة، خلفنا قبور وخلفها مساحة شاسعة من الأشجار قبل أن تصل لأقرب قرية، قالوا لنا ونحن مستجَدّون: "إن أقسى خدمة هي خدمة تلك الجهة، وأن العرب البدو يسطون على الجنود لسرقة السلاح" أعود إلى القائد الواقف تحت البرج ومعه أعوانه في مروره المفاجيء غير المتوقع، أنزل شاعرًا بالخوف من العقاب القاسي؛ لقد نام فرد الخدمة ولم يثبت القائد ويطلب منه كلمة السر كروتين معلوم يدل على اليقظة والانتباه طوال الوقت، فقال لي:

أنت نائم هنا، وتركت خدماتك كلها نائمة!، كلكم متدورين مكتب الصبح؛ والتفت للشاويش المرافق له وقال اعملي أورنيك ذنب لهم جميعا ولاد الكلب دول.

مشي، وجلست أشعر بحرارة في جسمي، ونزلت أدور حول الخدمة حتى الصباح كما تدور الجاموسة حول ساقيتها التي لا تجلب الماء، عقابي كان الحجز من الإجازة بينما دخلوا جميعًا السجن عشرة أيام، لا ضير فحجزي أو سجني سيان؛ ما زلت هنا.. بعد أسبوع، مر الصول (غريب) في الواحدة صباحًا، كان منقولًا إلينا منذ أيام، يتصنع الغلظة والشدة بعلو صوته على الرغم من أن ملامحه تقول إنه ليس هناك أتفه منه!

ومن سوء حظه أن وقع معي، جاء يشق الظلام وكنت منتبهًا، نادى فرد الخدمة اليقظ بأعلى صوته منذرًا: اثبت محلك.. قالها بمنتهى صوته.. لم يثبت، ثم كررها، لم يثبت، يبدو كخيال ولم نعرفه، ناديت بدوري: "اثبت محلك..!". اقترب ولم يهتم ووضع قدمه على أول درجات سلم البرج ليصعد إلينا، ماذا يريد هذا المجنون؟

قلت لفرد الخدمة: "شد الأجزاء.. تهيؤًا لضرب النار؛ كان مصرحًا لنا بذلك خصيصًا لحساسية المكان –لن أخبركم به بالطبع– صعد الدرجة الثالثة حتى اتضح أمامي، وقفت وثنيت ركبتي اليمنى أعلى صدري وفردتها مع إمالة الجذع للخلف كما تعلمت في (الكونغ فو) فسقط على ظهره وهو يقول: (يا ولاد الو___) في الصباح كافأني القائد فشكرته، وعاقب الشاويش بالحجز من الإجازة فشخر لي وتوعدني، ومن يومها صارت المكائد تترى واحدةً تلو الأخرى، فأنجو من هذه لأقع في شراك تلك، وبالنهاية لم يرتح ذلك الوغد حتى فقدت كل ميزة كانت تعينني على قضاء أيامي.

الفصل السادس
اكتشفت ذاتي

في الحقيقة أنا رجل مكتشِف، أكتشف أهم ما ينفعني شخصيًا، على الأقل أن أفهم كيف أتعامل مع نفسي أو أحاول التعامل معها؛ لقد اكتشفت أنني مضطرب بل حاد الاضطراب، لذلك لم يفهمني أحد. في حين أن الكل من حولي يَدَّعي أنه أشد الناس فهمًا وأكثرهم وعيًا، على الرغم من أن هؤلاء جميعًا لا يستطيعون تقديم أقل دليل على ما يدعونه، ولكن هي طبيعة البشر. إن الجاهل رغم يقينه بجهله الذي ربما يستحق به نوبل في الجهل إن وُجدت فإنه يَحمَّر وجهه، وتنتفخ عروق رقبته، إذا وصفه آخر بالجهل، ولا أدري لماذا الكل يدّعي الفهم ولا يسعى لأن يكون كذلك في الحقيقة دون هذه الادعاءات، طالما أن العلم شرف لماذا لم تسعَ إليه؟ وطالما أن الجهل هو قمة العار فلماذا لم تفر منه؟ وقد قيل:

"كفى بالعلم شرفًا أن يدعيه من ليس أهله، وكفى بالجهل عارًا أن يتبرأ منه من هو فيه".

الكل يدّعي الفهم، ومع ذلك لم يفهمني أحد، على الأقل يفهم أنني رجل مكتشِفٌ كما أخبرتكم، لذلك أتتني فكرة، وهي ألا أهتم بهم، فقط عليَّ أن أهتم باكتشافي وأعكف عليه، ربما تقول إن عدم اهتمامك بهم شيء عادي في واقع الناس، فكيف توصّلت كمكتشف عبقري إلى هذه المسلّمة العادية؟

أقول لكم إننا كثيرًا ما ندّعي بالكلام المنتشر على ألسنتنا مواضيع، ونزعم أنها عادية جدًا، لكننا في الحقيقة لا نفهم كيف نحوّلها واقعًا عمليًا في حياتنا. وانظر إلى هؤلاء العباقرة الذين يرمون الحل لأعقد مشاكل الحياة

في حجرك وهو متخذٌ لنفسه مجلس الحكيم، لكنه هو هو نفس الشخص الذي يختلط عليه في مشكلته البسيطة الخاصة أمورٌ تحُول دون التعامل الصحيح معها، ومن ثَمّ ربما لا يحل المشكلة، بل يُعقّدها، القصد هو أنه ما أسهل من الادعاء! ولذلك وأنا أكتب إليكم ربما لا آمن على نفسي أن أكون أنا أيضًا مدّعيًا في بعض الأمور، لكن كما أخبرتكم أنني أتكلم فحسب، أقول ما يدور برأسي وما أشعر به، ولكم التقييم بعد ذلك، يعجبكم أو لا يعجبكم تلك حريتكم في الوعي والفهم والإدراك، رغم أنني كإنسان حالم أتمنى أن ينال كل شيء أفعله إعجاب الناس حتى البصاق؛ نحن بشر، نحب الإحسان ونحب المدح والثناء، ونحسن لمن أحسن إلينا وشَكر، ونكره الذم ونتأفّف منه، وكم كنت أنا أيضًا مُدّعٍ في محطات من حياتي! وكم كنت أحمق في تجاربٍ بعينها! بل وأزيدكم أنني كنت رجلًا مُهانًا في مواقف معينة، ولن يقلل هذا من شأني أن أقول لكم تجاربي وما أشعره، إنني لم أفقد الثقة يومًا في نفسي مطلقًا، بل إن الكثيرين ممن يعرفونني جيدًا كانوا من فرط ثقتي بذاتي يرمونني بالغرور، كما تساءلت في البداية لماذا لم يفهمني أحد؟

الفرق بين الغرور والثقة الزائدة شعرة تحتاج إلى شخص واعٍ كي يفهمها، وإلا فسيكثر الادعاء، ومن السهل جدًا أن أرميك بما ليس فيك، ولكن من الصعب جدًا أن تقتنع أنت بذلك إن كنت واثقًا بذاتك، وسرُّ شعوري بالإهانة أنني كنت مغفلًا؛ ضيّعت من عمري سنينًا طويلةً لمن لا يستحق، كنت أمنحهم كل ما أملك ولو كان قليلًا، وأعطيهم كل ما أحمله من حب حتى وإن كنت غريبًا في التعبير عنه، لذلك لم يفهمني أحد، لقد تعلمت درسًا قاسيًا جدًا، تعلمت أن من تجاهد نفسك لأجل ألا تكسره فستلقى منه

أشد وأغلظ انكسار، والسبب في كونك كنتَ تجاهد نفسكَ لئلا تكسره، دليل على أن هناك ما يستفز فيك غريزة المقاومة لنيل وتحقيق العكس، وإلا فالأمور ستكون عاديةً جدًا..

أنت تحب؟.. إذًا أنت صاحب قلب، وبما أنك صاحب قلب فأنت صاحب نقطة ضعف قوية، ولذلك إن لم تكتشف نفسك جيدًا، وتكتشف الآخرين جيدًا، فستؤتى من قبل قلبك، وتنكسر أيما انكسار، وحينها ستجلد ذاتك كأظلم جلاد اختلى بمذنب، وستشعر بالقهر حيال ذاتك والانشطار النفسي بين أن تكون أنت القاسي الجلاد الظالم، وأنت في نفس الوقت مسكين ضعيف مظلوم، مظلوم لأنك كنت عفويًّا وتلقائيًا بنقاء لم يتفق مع سوْءات قلوب من حولك. إنني أكتب تلك الكلمات وأنا في غاية الشعور بالانسحاق، عندي رغبة ملحة في بكاء هيستيري وبصوت مرتفع، لم أكن أعرف ذلك من قبل، لذلك فإن اكتشافي لذاتي يُعد إنجازًا أستحق عليه جائزة أحمق مكتشف في التاريخ، وحين تسلمها لا يمكنني التأدب بما أنني حصلت على تلك الجائزة وإلا فستخرج عن معناها وتتحول إلى جائزة تشبه بقية الجوائز الأخرى، سأخطو خطوات حزينة خافضًا رأسي، وأمد يدي لأنتزع الجائزة وأعود إلى أدراجي دون أن أصافح مانحي الجائزة، هنا يكون موقف أحمق من شخص أحمق لجائزة أحمق رجل، هنا تكمن المصداقية يا سادة، المشكلة هي أن الجميع يظن أن الادعاء ينفعهم بل يزيدهم إهانة، لذلك كنتُ أكتشفُ المدعين حولي لأكون مكتشفًا، ثم لا أخفي عنهم أنني اكتشفتهم لأدعي أنني لم أكن مؤمنًا بادعاءاتهم؛ مما يجعلني الوحيد بينهم الشخص العاق المستحق لأن يكون منبوذًا، ثم تكون النتيجة هي أنني لم يفهمني أحد..

وكوني مضطربًا –كما وصفتُ نفسي– لأنني على الرغم من أنني مكتشف فإنني لم أستطع التعامل بما يليق معهم، فأحرق أوراق اللعبة لأبدو مكشوفًا ولست مكتشِفًا، وهناك فرْق بالتأكيد، لذلك كان يسهل على الأنذال الوضعاء أن يصيبوني بسهامهم القذرة، ولأن الجميع غالبًا ما يشبهون بعضهم بعضًا، وبما أنني لم يفهمني أحد، فأنا أشعر بالانسحاق؛ أحب أن ألقي على مسامعكم كلمتين:

الرجل منّا أو الواحد منّا لا يشعر بالانسحاق إلا إذا كان عظيمًا أو صادقًا في بعض التجارب ولم يَلقَ التقدير بل العكس، أو أن يكون جربوعًا دون الناس جميعًا، يشعر بدونيته، كِلا الأمرين يوصل إلى نتيجة أعتبرها نفس النتيجة مع اختلاف في جهة أخرى مهمة. النتيجة هي أن تشعر بأنك بعيد بذاتك عن العالم المحيط، إما تحت أقدامهم يطئون جثتك الملقاة على قارعة الطريق، وإما أن تكون وحيدًا بمعزلٍ عنهم بداخلك فلا تشعر بالأُنس، وتشعر مع ذلك أنك تنفرهم لحد كبير، ولأن هناك شيئًا ما لازمًا في الحياة ينقصك أنت، ستشعر مع الوقت بالاضطراب والخلل، هذا الشيء اللازم هو أن تعيش حياةً طبيعيةً..

سأحكي لكم قصة واحد ممن تربطني بهم علاقة قريبة جدًّا، هذا الشخص الطموح متعدد المواهب، وهو الفقير متعدد التجارب، كان متزوجًا زوجتين، إحداهما فقيرة وهي زوجته الأولى التي كانت من نصيبه في أول حياته، والثانية تزوجها بعد تجربته الأولى بعشرين سنةً، فكان وقتها يبلغ من العمر ثمانيةً وثلاثين سنةً، كانت زوجته الثانية أرملة، تعارفا في سوق الحياة ثم تزوجا، كان زواجًا مبنيًا على حب، كانت أعلى منه طبقيًا، اتفقا في الوعي والثقافة والمشاعر، واختلفا من حيث النشأة البيئية؛ حيث وُلدت في دولة

الإمارات ونشأت وتربّت في مجتمع مترف حتى سن الخامسة عشرة، ثم عادت مع عائلتها للاستقرار بمصر وأكملَت تعليمها وتخرجت في كلية الآداب، قسم الجغرافيا، شعبة نظم المعلومات الجغرافية، لكنها لم تعمل في ذلك المجال ولا في غيره بعدما تزوجت من ضابط في الجيش، عاشت معه جل حياتها حتى مات بعد معاناةٍ مع مرض في الرئة، جمعتها بعض المفاهيم والأفكار مع صاحبي، وكثير من الحب والعاطفة، لم يفكر صديقي في شيء سوى أن يجرب الحب الذي تمناه وخشي أن يموت دونه، كلما فكر فيه صاحبي أن يعيش حياةً كاملةً ويبدأ معها مشوارًا كان مُعطلًا منذ سنين طويلة؛ اعتمد عليها كثيرًا في أن توفر له الأجواء المناسبة لذلك، فعلت معه الكثير حتى أمَدته ببعض المال كي يحقق ما يحبه بأقرب وقت. كان صديقي يعمل مهندسًا عماريًا لكنه كان يعمل براتب زهيد مع أحد المقاولين، وكان طموحه أن يكون له شركة خاصة، لكن الفقر حال بينه وبين ذلك، وكان رسامًا بارعًا، ويجيد العزف على البيانو، وله محاولات في الكتابة النثرية كالخواطر المليئة بالشجن والحزن، كان يكتبها حينما يكون حزينًا منسحقًا. شخصية صديقي كانت نادرةً؛ يميل إلى الحزن والعزلة، يعشق الجمال في كل شيء، له فكر وتطلعات رهيبة، لقد وجد نفسه الحقيقية معها، وكان كثير الأسى على ما فاته من أن يكون كثير الفرح بما أتاه، لعل ذلك هو العيب الذي كانت تراه زوجته الثانية فيه، رغم أن فيه من المحاسن ما فيه! وعندما حان الوقت لافتتاح الشركة التي كان يحلم بها كان قد لقي من مُر التجربة ما لقي، أقصد تجربة أن يكون لك زوجتان متنافرتان في كل شيء، يكون برجله في القاع وبالرجل الأخرى فوق السحاب، ولا أقصد بالقاع شيئًا معيبًا وإنما أقصد طبيعة التجربة؛

فزوجته الأولى من نفس بيئته الريفية البسيطة، عفوية وتلقائية ولا تحسب الأمور باستغراق، حمقاء بشكل بكي، بينما الثانية تعمل دراسة جدوى لكل شيء –حتى لو كان موضوعًا سيتناقشان فيه– وتستغرق في التحليلات. كان صاحبي يعيش حياتين متنافرتين، برود في المشاعر والعقل مع الأولى، وحرارة في المشاعر والعقل العامل بقوة مع الثانية، يعيش وسط الفقراء البسطاء مع الأولى، ويعيش مع المترفين والأغنياء مع الثانية؛ كانت تلك الطبيعة الغريبة تصيبه ببعض التقلبات المزاجية المفاجئة، وتُحدث عنده بعض ردود الأفعال غير المنطقية أحيانًا في التهابها وقسوتها، يرى نفسه بين الكبار كبيرًا، ثم يعود إلى البسطاء من قومه وعائلته فينكر بشكل غير إرادي بعض التصرفات التي كانت عاديةً بالنسبة له من قبل، الآن يرفضها، الآن ما عاد يضحك بشكل هيستيري كما السابق، ما عاد يصنع النكات ولا يضحك عليها بل يكتفي بالابتسامة؛ وهذا ما جعل الأهل والأقارب يصفونه بالمغرور بحياته الجديدة والمتمرد على أصله، بينما الحقيقة أن تركيبته العقلية قد استفادت وتأثرت بالحياة الجديدة، فأضْفَت عليه بعض الوقار والاتزان حد الرتابة، والنضوج حتى الملل، فيكون بعقله بين العقلاء في مجتمعه الثاني رجلًا عاقلًا مثقفًا، بينما لا يزال ذاك الشخص البسيط المهزار التلقائي المتغافل عند الأهل والأقارب. صاحبي كان يعاني انشقاقًا في ذاته، وتصدعًا في روحه، فلا يمحض البساطة ولا يمحض الرصانة والجمود في كل شيء من قول أو فعل بجدية تامة، خصوصًا بعدما افتتح شركته وصار مهندسًا كبيرًا يأتيه المال من مشاريع هنا وهناك. في الحقيقة صاحبي هذا له طبيعة عادية جدًا، وتغيراته تلك كانت طبيعيةً، بينما هي ليست طبيعيةً للآخرين الذين بدأ حياته معهم، خصوصًا زوجته التي رصدت تغيرات متعددةً جعلتها تنفره،

ظنت أن شخصًا آخر (كدوبلير) له يعيش معها، السر لبقاء تلك العلاقة هو أن تظل تلك البساطة والعشوائية والفوضى، وفي حال حدوث عكس ذلك أو محاولة تبديلها بما يشبه الحياة الثانية التي عاشها مؤخرًا فهو مسمار يُدقّ في نعش تلك العلاقة، هذا ليس من ناحيته وإنما من ناحية الزوجة الأولى التي ترى من الاستقلالية ألا تشبه الثانية، أو يحاول زوجها أن يجعلها نسخةً ثانيةً منها، هكذا تفكر المرأة بشكل غريزي بحت، بينما العقل لو تدخل ليكون سيد الموقف سيقرر أن الطبيعة تحتّم اختلاف الإنسان وتغيّره بتأثير التجارب، وأن من الممكن أن يتبدل الشخص ليكون آخر إلا في الوجه والملامح فقط، حتى الجسم من الممكن أن يغيره، فلو كان سمينًا تحول إلى النحافة والعكس، ولو كان هزيلًا تحول ليكون مفتول العضلات. وأرى أن الفكر والعقل الذي يُلقي ظلاله على المشاعر والسلوك طبيعي كما كان يراه صاحبي، بخلاف ما يراه أهله وزوجته وأصحابه الأُول؛ الناس في الغالب لا يفكرون بعقلية وإنما بعاطفة، وأقصد بالتفكير بالعاطفة مجازًا: أي أن العاطفة هي الدافع، وإلا فالتفكير من عمل العقل في الحقيقة، ومع كثير من المناوشات والشجار والتراشق بالألفاظ والاتهامات تغيرت مشاعرهم تجاه بعضهم وتنافرت بينهما السبل، ومن ثم طلقها صديقي حيث كانت عبئًا ثقيلًا على تفكيره، وتجره لترهات كثيرة، في وقت أنه صار صاحب شركة وفريق عمل وأعمال وحيوات أخرى تستلزم صفاءً ذهنيًا؛ اتهمته زوجته الأولى بأنه تكبر وأنه خسيس ونذل، وشاع في بيئته أنه حينما كان فقيرًا كان أفضل مما بعد أن صار غنيًا، وأنه حينما أُغني تكّبر، والحقيقة أن تفاصيلًا كثيرةً لم يفهمها أحد، لذلك فالتدخل في خصوصيات الناس وعلاقاتهم أمرٌ في غاية السوء، ومن سمح لأحد بالتدخل فسوف

يطلعه على كل التفاصيل المؤثرة في الحكم وتكوين قناعة ومفهوم صحيح أو أقرب للصحة، ولم أنسَ صديقًا آخر طلق زوجته بعد عشر سنوات من العِشرة وبينهما أطفال؛ ما جعله يأبى أن يهتك سترها ويفضح سرها، واكتفى بقرار الطلاق لكن الناس أخذوا يلومون عليه ويُقطّعون في لحمه بالكلام المهين بأن هانت عليه العِشرة وأنه لم يقدر أمر أطفاله الصغار... إلخ. كان يعيش أيامه ولياليه مكتئبًا من كلمة أتته من هنا ومن هناك قد قيلت في حقه، ولأنني الوحيد من أسَّر إليه بالتفاصيل فأنا أعرف أنه أحسن إليها كثيرًا وبإفراط؛ حيث إنه لم يطلقها منذ خمس سنوات ومنحها الفرص كي تطور نفسها وتتغير إلى الأفضل واللائق، وكنت أعلق على هذا كله بقول نبي الرحمة والإنسانية –صلى الله عليه وسلم:

"من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه". تَرك الإنسان ما لا يعنيه ينعدم معه مشاكل نفسية واجتماعية كبرى؛ فإن من العلماء من أعدوه ربع الدين وحده، وبهذا يتضح أن ربع الدين ينحصر في ترك ما لا يعنيك وعدم الخوض فيما لا ناقة لك فيه ولا جمل، وأن تمسك عليك لسانك إلا من خير. عظيمة جدًا تلك النصوص النبوية التي تضع الأسس العميقة في الأخلاق، ولكن أكثر الناس لا يعلمون، تلك التدخلات بالقول أو الفعل من الناس فيما لا يعنيهم من حياة الآخرين مفسدة لحيوات بعضهم، فالأوْلى بالتفسير والحكم على التجارب هو صاحبها، ومن ثَمّ هو الأوْلى باتخاذ قرار بشأن تجربته وموقعه فيها، وهذا يتنافر مع تدخلاتهم بوساوس تشبه وساوس الشيطان للإنسان كي لا يُصلي، فيتأثر البعض بكلامهم وتفسيراتهم التي خرجت من ألسنتهم ومن مواقعهم خارج خط النار، خط النار هو التجربة بالطبع، وصاحبها بالداخل يشعر بما لم يشعر به هؤلاء، وليس من المنطقي تبرير

الإنسان حياته ومواقفه لكل من هبّ ودبّ وصاء وماء وعوى ونبح، ولكنه هو الأوْلى بحياته التي يقضي فيها عمره، وهو المالك لعمره الذي سينتهي ولن يزيد عليه هؤلاء أقل وحدة زمنية وُجدت، كذلك هو المسئول وحده عن حياته كيف عاشها ولن يملك له هؤلاء ضرًا ولا نفعًا ولا موتًا ولا حياةً ولا نشورًا، لذلك تأثيراتهم المستفزة الفضولية تفسد حياة الآخرين حين يتأثرون بهم وبرؤيتهم، وتفسيرهم وأحكامهم عند اتخاذهم قرارًا ما، مع الجهل وعدم النضج وقلة الفهم والوعي يزداد فساد ذلك السلوك الشنيع، فكم من زوجين عاب الناس زواجهما رغم رضاهما وقبولهما! وكم من زوجين انفصلا لسبب ما، خفي أو ظهر للعلن! تناولتهم ألسنة الناس وأنيابهم تلوك لحومهم، وكم وكم...

****

الفصل السابع
مدفوعٌ كمجنون نحو القبور

لا أعرف لماذا خرجتُ إلى القبور في عتمة الليل بعزمِ مُريد والِهٍ؟!
حتى أنني لم أشعر بالخوف مطلقًا، الخوف من الظلام، الوحدة، السكون الرهيب، الموتى،...!
إن شيئًا واحدًا هو ما دفعني إلى فعل هذا، وهو أنني اشتقت لرؤياها، الحنين يدب في قلبي تجاهها. كل فترة من الزمن تمر بي أنشغل فيها بكل المشاغل الجادة والعبثية لكنها تعود عليَّ بأشد ما يكون من الوجد القاتل، أذهب حينها إلى القبور قاصدًا مرقدها لأقف أمامه أو أجلس على الأرض في حضرتها كتلميذ بين يدي معلمه، الظلام حولي كما في داخلي، كل شيء استحال ظلالًا وخيالات تتحرك بفوضى بكل اتجاه، الصمت الرهيب والمجازات تدعوني إلى الولوج كي أراها وتراني، يناديني الوجد من أعماق نفسي "هيا اسكب كل مشاعرك" أما قبرها كالزهور فكله مقبول، ولا شيء مردود، لغتي الوحيدة هنا هي البكاء، أريد أن أشق عن قلبي لأخلعه وأمضغه كأنني أصبحت (دراكولا) لأشعر بنشوة طفل بين يدي أمه، بنشوة طفل يخاف الظلام فيضع وجهه بين كفيه. والبرد قارس، تمردت على الدفء داخل البيت الكئيب بفعل الوحدة، ولذا رَوَّعَني أن أكون وحدي مع الشيطان، الشيطان ببشاعته وظلاميته وكُرهِه لي لكوني إنسانًا، يحرضني كثيرًا لفعل وقول ما يبرز عتمتي الداخلية ويفصح عن سوداويتي، جلست أحلم بها وبأنني أعانقها بقوة، والآن أريد معانقتها في مكانها ومجازها وحقيقتها..

أناديها: "هيا اخرجي، انهضي وحطمي باب المقبرة اللعينة، واطرقي باب ضبابيتي الكثيفة، ادخلي بابي المفتوح على مصراعيه، ارتعشي بداخلي من برودة مقبرتك المظلمة، والتهمي قلبي خبزًا ليمنحك طاقة الحركة مجددًا، حطمي قيود الكفن وانفضي التراب عنكِ، عودي إلي روحي يا طفلتي الغائبة..."

مع بكاء شديد...

أشعر بوجد وحزن وكآبة شديدة، تدل عليها تلك الدموع المنهمرة كشلال على لحيتي، فيغلبني النعاس قليلًا كي أدخل عالمها في الحُلم المُقيت، قبل أن يوقظني نباح كلب من بعيد، الكون كله يستحيل إلى فراغ قاتل حينما نفقد من نحب، سأردد معها كعادتي قصيدة للشاعر السوداني "محمد عبد الباري" كما كانت تحب:

لابد للنار ألا تنتهي أبدًا
ليستطيع الدخان المحض أن يَعِدا
هي المتاهة
ساعات معلقة تدق
لن تجد الأشياء، لن تجد
يا أول الحب والأسماء ساخنة
لكل سهم وإن شق الرياح مدى
من حيث هبَّت الأصوات تخبرني
أني سأذهب في كل الجهات سدى
يا بنت عينين من مسٍ ومن تعبٍ
لولاهما ما تمشي في الزجاج ندَى

لقد شددت إلى طور النساء دَمى
وما وجدت على نيرانهن هُدى
وكدتُ أن أخسر الليل الأخير
وقد تأخرَت فضة العشاق والشُهُدا
أحبك الآن
لكن من سيصلبني
حتى أحبَّك
يا كل النساء غدًا

****

أعود إلى بيتي وأنا ألتفت وأمسح دموعي بكُم قميصي، ككل مرة يقتلني فيها الحنين لرؤياها ولو للحظات، كي أعانقها ولو سأموت بعدها، آه من الشوق المميت!

عدت إلى البيت ودلفت إلى حجرتي أشعل سيجارةً تلو الأخرى، على الرغم من أني لم أدخن السجائر، ولكنها عوضًا عن الشيشة التي ركلتُها بقدمي ذات غضب فتحطمت. قرآنُ الفجر بدأ بالانتشار عبر أجواء المدينة وما زلتُ يقظًا منتبهًا بشيء من البؤس القاسي، والتوتر والقلق القاتل، حاولت مرارًا أن أنام ولم أستطع ذلك، مواضيع كثيرة تتوافد على رأسي وتتحكم فيها ذكريات ملحّة سيئة، والقليل من المواقف جعلت بسمةً رقيقةً على وجهي لم تلبث إلا أن ماتت مخنوقةً بعهر الكآبة المسيطرة، كثيرًا ما أعاني تلك الحالة منذ ماتت، فلم أنسَ ستة عشرة شهرًا كنت على حافة الجنون فيها بعدما تخلَّت وذهبَت بعيدًا دونما أي اتصال إلا في الخيال والمجاز، أحتاج بشدة إلى اتصال بيولوجي ومادي لكن هيهات

هيهات، حتى وأنا أفكر بعقلي كي أنحي وجداني قليلًا؛ أفكر وأحلل ما طرأ على الوجدان بشكل عاطفي لأحيله عقلانيًا، بين هذه الحالة وتلك أنا بين سندان وجدان رقيق ومطرقة عقل قاسٍ جدًا، وأسوأ شيء ألا يشعر بك أحد، وألا يفهمك أحد، وألا يمنحك من فهمك ما ترجوه ليحاول إبعادك عما تريد ويقنعك بخلافه.

قالت لي ذات مرة:

"لماذا أنت مخلوق للألم والكآبة يا سعيد؟ لماذا يغلب عليك طابع الحزن؟ هل أنت تحب ذلك فتسعى إليه، كمن به خلل نفسي يعيش المظلمة ليتلذذ بمشاعر البؤس كشخص يعاني المازوخية؟"

نظرت إليها ببيوس وجهي وقلت:

ما من أحد يحب الألم يا عزيزتي، بل الألم هو من اختارني كي أمنحه حياته وما يريد!

ضحكَتْ وضحكتُ بدوري، لم تفهم ولم أفهم شيئًا، وهذا سبب الضحك الهيستيري من فوضى الإجابة وعدم منطقيتها، لقد أجبتها بوجداني لا بعقلي، لأنها محركة وجداني بشكل رهيب كسائق القطار السريع على القضبان المستسلمة دون أن تبدي أية نفور وتمرد، العبثية، العبثية فقط قد تنفع في مواقف بعينها؛ لم أعد أطيق التبرير والتفسير لكل شيء أمرّ به لأنني متعَب جدًا، ولأنهم بالتجربة حمقى مغفلون؛ لا يفهمون شيئًا داخلهم ولا حتى يمنحوا وجدانهم فرصةً واحدةً كي يشعروا على الأقل بالرحمة، ربما لأنني انفتحت على كثيرٍ مما لم يكونوا على دراية به، ولذا يشعرون تجاهي بالغضب والضجر، لأنني أذكّرهم بنقائصهم العقلية والوجدانية!

****

كنا حالمين؛ نعيش بصفاء داخلي، مثاليين في التفكير والتوقعات، نبتسم للعالم كالبلهاء ونظن أننا نبتسم للحياة كما تعلمنا في المدرسة، لكننا حين كبرنا ما وجدنا تلك الطفوليات البريئة إلا في نفوسنا الصغيرة. في الواقع وجدنا أوفى مخلوق هو الكلب الذي اختلفوا على نجاسته، واتفقوا على كونه يطرد الملائكة من البيوت بوجوده فيها، إنه لشيءٌ عُجابٌ!

أن يضرب الإنسان المثل في وفاء الكلب، ونفس الكلب يرون نجاسته وشؤمه.

كنا نرى الوجود جميلًا لجمال دواخلنا، ولمّا أدركنا الحقيقة بأن العالم قبيحٌ جدًا في كل شيء انطفأت مصابيح أفكارنا المعلنة الجمال بداخلنا، وحلَّت عتمات وظلام يتسلل من خلف قضبان نفوسنا إلى الخارج في، وتحليلاتنا الواقعية، لينعتك أحمق بأنك من محضّت الظلام والقبح خلف نظارتك السوداء المتسخة بالقذارة.

في وقت أننا نلبس النظارات لحماية أعيننا ورؤيتنا من تلوثاتهم، كنت أكثرهم حِلمًا وحُلمًا، ووداعةً وصبرًا، وابتسامةً وضحكًا، أتندر على أي شيء، وأصنع النكات ليضحك الجميع، وأشعر بسعادتي حين أُضحكهم. كنا صغارًا، ولما كبرنا ونضجنا وآلمتنا التجارب وفهمنا، أدركنا العبثية في كل شيء واللاجدوى من أي شيء، حين أبكانا من أضحكناهم كثيرًا، ومزقوا بأظافرهم لحوم ظهورنا، ولاكوا بأنيابهم أمعاءنا، وأشبعوا جوعهم بالتهام قلوبنا خبزًا نيئًا. كبرنا وما زال في طفولتنا شيء مضيء وراء ظهورنا يكفي لكي ننقل الخطى، لولاها لاختلطنا بالظلام وذَوّبَنا الضباب الكثيف على الطريق.. الآن ندخل خيالاتنا لنتكوّر حول أنفسنا ككلب يبحث عن دفء بأي بقعة نائية، ندلف إلى عالمنا الذي صنعناه من وهم الخيال

والافتراض هروبًا من واقع يزداد سوءًا، نعيش ونتعايش، ونقضي الأيام كما تريد أن تُقضى، وحين يشتد الألم نتصبر بأن هناك عالمًا آخر سنلقى فيه الخير الوافي، والسعادة المطلقة الأبدية والخلود.

كل أمل ميتافيزيقي، وكل سعادة ميتافيزيقية، والواقع الحقيقي في صورهِ شتى أنواع السفه والعته والألم والكدر.. والحالمون والمتفائلون –غالبًا– هم البلهاء في هذا العالم؛ الوعي عندهم في غرائزهم، المعرفة عندهم تكفي لكي يتدرجوا في الغنى والوجاهة الاجتماعية. أما الفلاسفة والمفكرون فهم الأرض الخصبة لكل مرض نفسي يتسلل إليهم، لا أُثرثر ولا أهرف بما لا أعرف بل الحقيقة هي تلك.

العالم لا يحتاج إلى الفقهاء بقدر ما يحتاج إلى البلهاء كي يتعايشوا بداخله، وسر تعايشهم قلة الوعي؛ فكثرة الوعي عن الحد المطلوب مفسدة لصاحبه، ربما يظن البعض أني مخمور أو بي ضجر، وليكن على الأقل أكتب حقيقتي، فهي حقيقةٌ على كل حال ولست أكتب كذبًا ولا أدّعي شططًا كالعالم والواقع من حولنا.

في كتاب الصداقة والصديق قال التوحيدي:

أخبرنا الطبراني قال: سمعت ابن المعتز يقول: قال بعض الملاح: "إن الناس قد مُسخوا إلى خنازير، فلو رأيتم كلبًا تمسّكوا به".

لقد عرفت لماذا في الغرب يحرصون على اقتناء الكلاب كثيرًا، يقولون لها (بابي ومامي) يهربون من وحدتهم لأُنس الكلاب ويكأنهم يطبقون كلام الناصح "وتمسكوا بالكلاب" ويذبحون الخنازير ويأكلونها.

إن أكثر شيء لم أكن أتوقعه وكان يؤلمني هو أنني في تلك الفترة –التي أحكي لكم عنها– كنت قليلًا ما أُثار جنسيًا، لأن جسدي

قد أرهق روحي وكبح سرعتها الفائقة، وهي تسبح في المحبة والخيال والوَلَه، جسدي المادي يقيد روحي اللامحدودة ويحدد لها إطاراتها كي لا تكون شاسعةً وحرةً كما أريد؛ ولذا فإن روحي تشعر بالأنين والأسى وتئن في ركن بعيد في الظلام، أراها منفصلةً عني في المجاز وتكلمني وأكلمها بلغة عتاب رهيب، لا يمكنني سوى البكاء كوسيلة للتواصل معها، ربما بعد حين نتعانق بشدة ونتصالح بقوة، ونجلس على مقهى قريب أسفل عقار قديم آيل للسقوط لنحتسي فنجانين من القهوة.

****

هكذا تدور بي نفسي بين العقل والعاطفة، بين التحليل والاستغراق في الحب بكل معانيه واتجاهاته، بين الوحدة والألم النفسي المكبوت، وبين الاندماج مع البعض لأشعر بالأُنس وأقهقه معهم في جلساتنا الخاصة. تدور بي نفسي بسرعة فائقة داخل محيط الحياة لتتولد عندي نهارات وليالي متعددة، فروحي تمر بفصول كفصول السنة تمامًا، وأنا أجتهد مرارًا في الاستدفاء وقت البرد، والتبرد وقت الحر، والخروج في الليل طلبًا للسهر، وملازمة الدار طمعًا في السمر، ورغمًا عني أتقلب في حياتي كما يريد ويشاء القدر، وأنا لا اختيار لي، بل وقد يقتلني مجتمعي بوجهة نظر، وفجأةً أراني متكدسًا بالعبثية والفراغ، فأنا خليطٌ بين الموجود في عالم الشهادة والخيال المحتجب في العالم الغيبي، متحرر من الواقع البذيء، ربما وحيد على ضفاف أو هضاب منفية خلف الضباب وخلايا الصمت الحية. يصيبني ما يصيب الظبية عندما توقن بالافتراس، وأنياب الأسود تُغرس في مقاتلها، فتقف لتنظر إلى الأمام رافعةً الرأس، متسعةً حدقتها بلا مبالاة للموت، يصيبها من البلادة ما يجعلها تقف لتُلقي نظرةً أخيرةً على الطبيعة التي طالما

ركضتْ فيها بحرية، وكأنها تقول لنفسها "لا بد أن أموت بلا مشقة ولا مقاومة، لا بد أن أموت في منتهى الراحة، مستسلمةً لنداء الموت "الصاخب" على الرغم من أن هناك أنيابًا مزقت أحشاءها فاندلقت أقتابها، وما يضر الشاة بعد ذبحها؟!

لن تُجدي أية مقاومة، لكن ربما لو تركوها بتلك الجراح لما استطاعت العيش ولم يؤهلها جرحها للموت، وهذا أقسى من الموت ذاته؛ فإما أن تعيش صحيحًا أو تموت مرتاحًا مستسلمًا إذا أتاك الموت، تلك فلسفة الغريزة في عين تلك الظبية التي شاهدتها وهي تُؤكل من كل مكان بجسدها ولم تركع باختيارها، بل أرغمت بفتور قوتها، هكذا نحن غالبًا، أو هكذا يكون صاحب الثقة الزائدة حد التعاسة، تجعلك ثقتك الزائدة مع الاعتداد بذاتك وكشفك لحقيقة من حولك أن تفضل الموت ولا تستغيث بأحدهم، في وقت إن نجا آخر لِما استغاث ولم يفكر سوى في الحياة، بينما الحياة الحقيقية عند أمثالنا هي أن تحقق ما تحبه في ذاتك ولو ستموت، هذا ما يجعل المناضل يُساق إل المشنقة وهو في غاية القناعة والرضا وعلى وجهه ابتسامة، وكان من الممكن أن يقبل عروضهم بأن يتنازل عن موقفه مقابل حياته، لكن كما قلت لك..!

فهو كمن يتنازل عن بعض حريته وهو راضٍ بعدما أيقن أن طلبه لها سيفقده حياته، أو يكدر عيشه، ويقول إن الأهم أن يعيش ولو ببعض حرية، بينما هناك من يرفض، ويريد أن يعيش حريته الكاملة دون أن يعترضها أحد، كان من كان.

****

الفصل الثامن
خارجا عن النمطية

شيءٌ يحجب عنك الرؤية الحادة، شيءٌ يحد من الشعور بلذة الحياة وما فيها من متاع ولو قليلًا، هذا الشيء هو القلق والتوتر والخوف والحنين. القلق حيث يغيب عنك ما لا تعرفه كيف هو، التوتر من كونك لا تستطيع فهمه، والخوف من أن تفاجئك الشراسة بشكل غير متوقع، والحنين لشيء ضائع مفقود، أنت في تلك الحالة تحمل حزامًا ناسفًا على خصرك، لكنه لا ينسف الجسد وإنما ينسف الراحة نسفًا، ينسف الاستقرار نسفًا. لعل البيئة والنشأة عاملان كبيران في تكوين ذلك عندي؛ فمنذ أن كنت صغيرًا كنت أخاف بطش والدي بسبب ودون سبب، حتى أنني كنت أخاف أن أنهض من سريري من جانبه وهو نائم كي لا أوقظه خوفًا من بطشه الشديد؛ فكنت أظل ساعةً في يقظتي لم أتحرك كفأر في ركن يلاحقه طفل شرير، ومع كل هذا كان عندي من الصمود والمقاومة ما يجعلني أصبر على تحمل تبعات نفسي، في وقت أرى فيه مرح أخي الأكبر وضحكه طوال الوقت واستمتاع الأهل به وبجلسته وكلامه، أما أنا فكانوا ينبذون كآبتي، يتغامزون عليّ لأشعر بأن لدي شيء ما غريب، أصابني هذا بالتوتر، يفعلون هذا مقارنةً بيني وبين أخي الأكبر بينما كنت أذكى منه وأحسن منه جسمًا ومنطقًا، لكنه كان جريئًا بما يكفي، وكنت أنا كثير الصمت منطويًا غالبًا، لا أحب التملق ولم أبالِ في وجود أحدٍ من الأهل عندنا بالبيت، كنت أفرح بقدوم بعضهم ولا أفرح بقدوم الغالبية، وكنت أعبر عن فرحي بأن أنظر إليهم وأنا جالس أمامهم دون أن يشعر بي أحد.

ظل ذلك السلوك معي حتى كبرت وصرت شابًا، كانوا يقولون لي يا سعيد: "لماذا لم تهتم بأن تُظهر ما في داخلك؟"

هل سيقوم الناس بتخمين داخلك، وقراءة الكف والفنجان؟

كنت أستمع إليهم وأنا أشعر بسماجتهم وقت أن كانوا يتضاحكون بمثل تلك الكلمات، لأنني كنت أشعر بمقصدهم من تلك الكلمات وهو التقليل والتندر، ولم يكن عندي من الوعي وقتها أن أقول في نفسي "هذا صحيح". كنت أنصرف إلى حجرتي وأغرق في الصمت حتى النوم، لذلك كنت أعبر عن حبي للفتيات بالنظر، كانوا يرون ذلك فيّ، ويصلهم ما بداخلي، لكني لم أنطق بكلمة تعبيرية عما أشعر به، ومن فضولهن كن يركزن عليّ ويبادلنني النظرات والابتسامات، حتى يطول التصرف ليخرج من إطار العاديات ليستحيل تصرفًا مثيرًا للغيظ والبلادة عندهن، لأعيش حسرةً بداخلي أشعر بها وحدي حتى تغيب عني بعد حين. لم يكن لدي اختيار في كثير من أموري؛ كليتي لم أسعَ إليها بل كنت أتمنى أن أكون مهندسًا، الآن تخرجت في كلية الآداب (قسم الفلسفة) وأعمل موظفًا بعقد خاص بيني وبين شركة خاصة، أعيش به على كف عفريت ويصيبني الخوف الرهيب كلما ساءت أحوال البلاد الاقتصادية وأثرت في القطاع الخاص، وكان يرعبني ما يتردد بشأن شركة أفلست وأغلقت أبوابها، أو تسريح بعضٍ من الموظفين، أو تقليل رواتب بعضهم، كنت على حد السنام المُزلَق، إن أطمئن فأنا معلَق، وأشعر مع كل عاصفة شعور امرأة تخشى أن تُطلّق...!

وبالنسبة إلى منطقتي التي عشتُ فيها فقد كانت مليئةً بالصخب والبلطجة والعنف، وكانوا في المدرسة وقت الانصراف يتدافعون جميعًا للخارج كالجراد، بضعة أمتار ويلتم كل صديقين أو ثلاثة ليغادروا المدرسة معًا،

وكنت أتمشّى مع صديق لي يسكن ناحية المزلقان في عمارة سكنية نظيفة، في مكان هادىء لا صخب فيه؛ كنت أتمنى أن أعيش في مثل تلك العمارة في نفس المنطقة وقتها، وأتساءل عما إن كان بالإمكان أم لا؟

وذهبت مرةً إلى أمي، وسألتها لماذا نحن هنا في منطقة كهذه ولم نسكن كزميلي فلان في عمارة بمكان محترم؟

قالت لي وقتها: "إننا فقراء" وسكتت، وسكتُّ بدوري وعرفت أن هناك عدوًا يجب أن ألعنه وأحاربه وهو الفقر، هو نفس الفقر الذي جعلني أتزوج من فتاة من نفس منطقتي وبيئتي وعائلتي وكنت أتمنى الزواج بزميلتي في الكلية لكنها كانت أغنى وأعلى شأنًا، وعائلتها –لا شك– لم يوافقوا عليّ وأنا فقير ابن فقير ابن فقير، فتزوجتُ بعد ذلك التعاسة وأنجبنا الشقاء، لنبدأ الرحلة الهباب في أيام العذاب والجري من أجل لقمة العيش كالكلاب!

ثم ينتهي كل هذا بالطلاق والانفصال؛ كنت غبيًا في علاقاتي، وكان جنون الزوجة مقابل الغباء ينتج نوعًا شديدًا من الكفر، انتهى الأمر، ومرت الأيام والشهور والسنوات القليلة حتى حققت بعض الأشياء الجيدة في عملي على وجه لائق، ثم تزوجت بعد ذلك امرأةً أعطتني كل شيء وعوضتني ما افتقدته منذ الصغر، وتعلمت منها كل شيء مهم كان ينقصني في الحياة، كأنها الرحلة الفارقة بين عالميْن، ثم ماتت وتركتني بعد ذلك كأنني عدت إلى منطقة الخوف والقلق والتوتر والحنين مجددًا بعدما كنت أحسن حالًا وأهدى بالًا.

أعدُّ أيامي وليّاليّ، آخذ في الحياة بمعاول قاسية لقساوة تلك الجدر التي تنشأ أمامي دائمًا، إما من داخلي فتعيق حركتي حين يشتد بي الاضطراب، أو من خارجي إن كنتُ أحسن حالًا بفعل الواقع السخيف

الممل، وفي الحالتين أنا عاجز تمامًا أو كثيرًا ما أكون كذلك، لكنني كنت أتمتع بقدرة فائقة على الكتمان وعدم الإفصاح عما في داخلي، أتظاهر بأن بي سعادةً ليست عند أحد، ومن سوء حظي –كالعادة وليس شيئًا مستغربًا– أن أكون تعسًا ويحسدني البعض على ما بدا لهم من ظاهري، وما بداخلي حزن العالم وكآبة السنين التي عشتها. أجلس في مكاني المخصص الذي اتخذته لنفسي بحكم الاعتياد على مقهايّ المفضلة، وكما تعلمت من زوجتي الأخيرة أن أجعل وجهي قبالة الباب لأكشف الشارع والداخل والخارج، كانت تقول لي "إن أحد أفراد عائلتها الضباط كانوا يقولون لهم ذلك تجنبًا أو استعدادًا للخطر" كان هذا في وقت الفوضى بالبلاد واندلاع المظاهرات والاحتجاجات ضد النظام والحكومة؛ حيث كان ينتشر النهب والسلب والاعتداء المفاجيء على الأماكن العامة والخاصة، لذلك اعتدت هذا بدوري، وجهي قبالة الباب على خط بزاوية خمس وأربعين درجةً من إحداثياتي الديكارتية التي وضعتها لنفسي، حتى أنني كنت في موقع لا يسير خلفي أحد، وكاشف للشاشة المعلقة على الجدار دون أن تقطع الرؤية أية أعمدة خرسانية بالمكان.

وأيضًا كنت قريبًا من العمال لحين احتجت الشاي أو القهوة فعليّ أن أشير بيدي فقط ولا أنادي بعلو صوتي، وكنت أرى الخارج والداخل بوضوح وأعرف ما يحدث بالمكان، وكأنني (بوليس) سري يراقب أكبر تاجر للمخدرات أو إرهابي خطير، وكنت قد تعرفت إلى صديق يشبهني كثيرًا وقتها، اعتدت رؤيته جالسًا في الزاوية المقابلة لكن يدير ظهره إلى الخارج، لا يتكلم مع أحد ولم يرفع رأسه من كراسته التي كان منكفئًا

عليها ساعاتٍ يكتب شيئًا لا أعرفه، أثار فضولي وسألت عنه، ناديت العامل وقلت له: "من هذا الشخص؟"

قال: هذا الذي تراه من أكابر عائلات في البلد، ينتمي إلى عوائل ضباط الشرطة والجيش، أول شيء فكرت فيه حينها هو لماذا لم يتخذ إحداثيات تشبه إحداثياتي ليكون وجهَه قبالة الباب لكشف الحركة وتجنب أي عدوان محتمل؟

أوليس من بين عائلته أحدٌ أخبره بذلك؟

زاد فضولي، سألت ما قصته؟

قال لي العامل: "إنه يكتب أغاني مهرجانات ويبيعها لينفق على نفسه منها وهو مشهورٌ عندهم". شعرت بأنني أريد التعرف إليه لنكون أصدقاء المقهى، وأيضًا شعرت بأن خلفه حكاية من مظهره وتصرفاته، وبالطبع قمت متجهًا نحوه وألقيت عليه التحية بشكل لطيف.

– سعيد: مساء الخير، عزيزي.

نظر إليّ وابتسم ابتسامةً مقتولةً، وقال:

– الآخر: مساء الخير.

– سعيد: وددت التعرف إليك فأنا أراك كثيرًا هنا، ودفعني شيءٌ ما داخلي للتعرف إليك، لا أدري لماذا؟

– الآخر: مرحبًا، لكني –للأسف– لا أرغب في علاقات مع أحد؛ فأنا أحب الانطواء.

– سعيد: لماذا؟

– الآخر: إذا كنتَ لا تدري فأنت لم تنضج مدركاتك العقلية بعد، وإن كنت تدري فلن أتركك تضيّع وقتي وخلوتي هباءً.

قالها بضجر ولا مبالاة لأغضب أو أنصرف من أمامه، ولا هو مهتمٌ بالانطباع الذي قدمه لي عن ذاته من أول حديث.

لكني كنت أكثر صبرًا، وما زاد فيّ غير رغبة ملحة لأن أعرف قصته.

– سعيد: صديقي هوّن عليك فأنا أشعر بشيء ما بداخلك يشبه ما بداخلي، لعل تجربةً تركت أثرًا سيئًا جذبنا إلى هنا، هل لنا أن نكون أصدقاء يتخذ كلانا الآخر مرآته يرى نفسه فيها من الخارج، فلعلك تحتاج لمن تحدثه مثلي تمامًا، وأراك تكتب كثيرًا وهذا دليل صدقي، لا تتردد ولن تندم يا صديقي؟

نظر إليّ بعينيه لأعلى وكنت ما زلت واقفًا ورأسه منخفضة، وقال:

– الآخر: من الممكن أن أطلب لك فنجان قهوة لنتحدث، لا تؤاخذني فأنا متعبٌ جدًا ومرهقٌ منذ فترة، جلست، فبدأ يحكي لي قصته وأخبرني أن اسمه "خالد عبد الجليل" وأنه من عائلة كبيرة بالبلد أعرفها جيدًا، وأن والده مات منذ صغره وتربّى تحت رعاية عمه الذي تزوج أمه.

– خالد: زواج عمي من أمي ترك فيّ أثرًا سيئًا جدًا ولم أقبله داخلي، وكلما تخيلت ما بينهما في السر خلف باب حجرة النوم تخيلت والدي وهو يجلس واضعًا وجهه بين كفيه يبكي، لأنه كان يحب أمي جدًا جدًا ويغار عليها من ثيابها، وكنت انا أيضًا أحبه لدرجة الوَلَه. كنت ابن الثانية عشرة من عمري حين مات والدي، وبعد موته بسنة تزوجَتْ أمي عمي (حسن) الأصغر سنًا من والدي، وكنت أتذكر أن عمي الأصغر كان يتلقى التعليمات من والدي تجاه حياته وتجاربه، وكان يوبخه لو فعل شيئًا سيئًا، على الرغم من أنه كان يبلغ من العمر بضعًا وثلاثين، وكان والدي في الخمسينيات، وأمي بينهما في العمر، وأخواتي البنات تزوجن

وتركن البيت إلى بيوت أزواجهن وبقيت أنا رهين تفاصيل كثيرة، لم أقدر على ترك البيت لصغر سني لكني كنت أبيت بالبيت فقط، وكنت قليلًا ما أتناول الطعام معهم، في الخارج طوال النهار مع أصحابي، أصحابي الذين كرهتهم لكرهي لكلمة "زوج أمك" تخيّل هؤلاء يتعمدون أن يقولوا لي "زوج أمك ذهب، زوج أمك جاء، زوج أمك أتى وسأل عنك" ما كانوا يقولون عمك سأل عليك حتى لا أقول لهم "أي عم هذا؟"

فأعمامي سبعة، وبعد أن تخرجت في معهد خدمة اجتماعية، وحصلت على البكالوريوس بعد ست سنوات، بالطبع هناك سنتان رسبت فيهما، أردت أن أعمل لكني ما استطعت لأنني لم أعتد العمل، لم أستطع صبرًا على العمل وأصحابه وزملاء العمل، وهذا جعلني أطالب أمي وعمي الذي هو زوج أمي بحقي من ميراث والدي، وهنا كانت العداوة، قالوا لي: "أنت فاقد الأهلية كي نعطيك حقك، حينما تريد الزواج نزوجك، لو احتجت مصاريف نعطيك" في الحقيقة تساءلت لو أعطوني حقي ماذا أفعل به، وانا أصلًا لا أريد الزواج ولا أحترم عقل أي امرأة، هل حينما أموت تتزوج هي بعدي، وأترك أبنائي يشعرون بما أشعر به؟

لست غبيًا؛ لقد وافقت على عرضهم بأنني كلما طلبت شيئًا يعطونني من حقي، وهنا سوف تكثر طلباتي، لكنهم كانوا يحددون لي مصروفي الشهري بما يكفي بالكفاف، وهنا زاد كرهي لهم، ولما هددت مرةً بأنني لست قاصرًا وأنني سأشتكي وأطالب بحقي بشكل قانوني فوجئت بعدها بسيارة الشرطة تتوقف أمام المقهى التي كنت أجلس فيها من قبل وأخذوني معهم، بالطبع أهلي من فعلوا بي ذلك كي أتربي وأتعلم الأدب كما عرفت بعد ذلك. لقد هددوني وضربوني وقالوا لي "أنت عيل حشرة"، أبوك لم يترك

رجلًا وهذا لأنك وحيدُه المدلل" ساءت نفسيتي جدًا، ومن يومها وأنا ألعن الزواج والإنجاب والعائلة والحسب والواقع والقوانين وكل شيء، متمرد كافر بكل شيء، ووجدت أنني أحتاج المال بعد أن استسلمت وعرفت أنني لم أحصل على حقي إلا حينما يريدون هم، ولا أدري متى ذلك، كل هذا وشعوري تجاه العالم شيء آخر يجعلني لا أهتم حتى بالمال إلا لكي آكل وأتنقل وأجلس إلى المقهى؛ فكتبت القصائد النثرية لكنني بعد حين وجدت اللاجدوى منها ماديًا، وأكتب لأحفظ في الأدراج فحسب، كتنفيس للمكبوت لأرتاح، لكن المال الذي أحتاجه جعلني أكتب ما يطلبه الفاشلون، الفاشلون في كل شبر من الأرض حولنا، ولكثرتهم يجعلون الفاشلين أمثالهم نجومًا، لذلك كنت أبيعها دون أن تُنسب إليّ، اعتبروني فرصةً لا تعوض بالنسبة إليهم، يضحكون عليَّ بالمال وينسبون كلماتي لأنفسهم، وأنا أعتبرني أكبر من أن يُنسب لي كلام خائب ركيك مثل هذا، وها أنا أعيش كما ترى، حينما أحتاج للاحتواء والحضن والاهتمام أذهب إلى فتاتي التي أحبها وتحبني حبًا من نوع بائس، جذبني نحوها ما جذبك نحوي. يبدو يا صديقي، أن الذوات المهمَلة لها قوة مغناطيسية خاصة تجذب نحوها بني جنسها، أحب روحها وتحب روحي، وجسدُها ملكٌ للجميع، والجسد فانٍ، والروح تبقى أبدًا، قالت لي ذات مساء: "إن الجميع يحتاجون منها جسدها، وهي تعطيهم جسدها، لكن روحها وكيانها الوجداني الداخلي لا تمنحه إلا لي، تلك فلسفتنا الخاصة نجتمع عليها ونفترق عليها، هل تعرف يا...ما اسمك؟"

– سعيد: اسمي سعيد.

– خالد: لا تؤاخذني، هل تعرف يا سعيد؟

– سعيد: هل تزوجت قبلًا؟

– خالد: نعم تزوجت مرتين، ما علينا، هل تعرف يا سعيد أن ما تمارسونه مع نسائكم ليس جنسًا حقيقيًا، بل الجنس الحقيقي بنظري يكون مع عاهرة؛ العاهرة محترفة عندها سر الصنعة يا سعيد، تعطيك شيئًا لا تعرفه غالبية النساء الشريفات اللواتي لا يعرفن عن الجنس سوى الإيلاج ولحظة الأورجازم.

– سعيد: أعوذ بالله من الحرام والزنا يا خالد، أعوذ بالله من نهاية ومصير الخسران المبين. الممارسة الجنسية بمشاعر هي من خصائص الإنسان دون غيره يا خالد، فلو كنت تفعل مع امرأة لا تحبها بعد أن تصير لك زوجةً حلالًا فكيف سيكون لديك المشاعر تلك؟ إلا أن تكون متصنعًا وفي تلك الحالة أنت تمارس بحيوانية بحتة حين غابت المشاعر يا صديقي، وهنا يكمن الشعور بالكآبة الذي يعقب فعل الوطء في محرم بلا مشاعر، ومع الاستمرارية تحيل شعور الكآبة لأسباب أخرى بعيدة عن حقيقة السبب لتبرر لنفسك استمرار الفعل، أما في الحلال مع الحب فالأمر مختلف تمامًا.

– خالد: تقول لي يا سعيد إن الأمر ينبغي فيما تظن بأنه حلال ومشاعر وحب فقط، وتلخص هذا في الزواج، على اعتبار أن كل المتزوجين يشعرون بالحب والمشاعر، هه أضحكتني في بلد ومجتمع يشهد الطلاق، ويعاني التحرش والاغتصاب أكثر من عالم الحيوان!

– سعيد: يا خالد لقد التبس عليك الأمر بين الحقيقة النقية وبين ما يشوب الحقيقة من سوء تطبيق وممارسة الناس و...

– خالد: لا عليك، أنت رجل غيري أنا، لك فكرك ووجهات نظرك، ولك فلسفتك الخاصة بالحياة، ربما أنت لم تعش تجارب المعذبين والمهمشين؛ لذلك تمارس الحياة بشكل عذري!

– سعيد: بالعكس يا خالد؛ لقد عشت تجارب هؤلاء، لكن القليل من التدَيُن والإيمان يؤطر لي الفكر والعقل كي لا أشذ وأنحرف بحرية مطلقة، وأعتقد يا خالد أن عقلك شاسع سحيق، وأنك غير محدود التفكير والتخيل، أنا فهمتك جيدًا، ولا شك سنكون أصدقاء مع التحفظ على بعض القناعات المختلفة.

– خالد: نعم، سنبقى أصدقاء في عالم الذوات المهملة نفضح المكبوت ونكشف المحتجب يا سعيد، فما أجمل أن تلقى في زحام الناس شبيهًا لك تكلمه فيفهمك! ولو فهمك يقدر ما تمر به، ولا يسْفه من شأن تجربتك وآلامك، هل تعرف أنني أشفق على كثير ممن يراهم الناس مجرمين، يذمونهم وينأون عنهم فرارًا منهم، أعتقد أن كثيرًا من مرتكبي الجرائم في هذا الواقع هم ضحايا الحياة والظروف، ضحايا القهر والذل والجوع والمرض، ودعنا نغير الموضوع، لقد قرأت خبرًا منذ عدة أيام بإعدام شاب، هل تعرف لماذا؟

لقد قتل زوجته وحماته وسعى لقتل آخرين من العائلة، لقد أثار الفضول حفيظتي لأتعرف إلى التفاصيل، العجيب أنني تفاجأت بأن هذا الشاب الثلاثيني حاصل على ليسانس دراسات إسلامية، يعني تعليمًا عاليًا وتخصصًا دينيًا، فكيف ذلك؟!

زادت معدلات الفضول عندي لمعرفة القضية، وما أسوأ من أن يقع الشخص فريسةً للظروف يا سعيد! ليجد نفسه بين خيارين كلاهما سيء، بين أن يعيش جبانًا مهانًا ذليلًا وأن يموت مجرمًا في نظر الناس، لو كان الأمر أنه يموت شجاعًا أو بكرامة لقلت الأمر معلوم، لكن هنا وجدت أن المشكلة لا حل لها يا سعيد، تخيل!

تطعن فيه زوجته أم أولاده، تستأسد بأهلها قساة القلوب فيرغمونه على التوقيع على إيصال أمانة، هل تدري لماذا؟

لأنه أراد أن يشتري سيارة يعمل بها وأراد أن تعطيه زوجته أم أولاده ما عندها من الذهب ليكمل ما يحتاجه من المال، الذهب هو من اشتراه لها ومكتوب في قائمة المنقولات كعادة الناس يا سعيد، النساء يقفن مع أزواجهن ويعطين المال لهم كي ينشدوا حياةً ماديةً أفضل، هذه لم تفعل وهو ما أثار غضب الزوج الباحث عن لقمة العيش في زمن صار الرزق فيه كما ترى؛ كانت أمي وأمك (تزغطان) البط فتضع في حلقه حبة ذرة، وراءها حبة، وراءها حبة حسب الحاجة، هكذا الناس في أرزاقهم الآن، الكل يبحث عن عمل إضافي ومال إضافي، الرجال متوترون قلقون جدًا خائفون على أطفالهم مما هو آتٍ، بالطبع هذا شاب لم يرتكب طوال حياته جريمةً ولم يدخل سجنًا، فلم يكن بوسعه إلا أن يقبل التوقيع على الإيصال لأنه مدفوع بالحاجة، مكثت زوجته ثلاثة أشهر في بيت أبيها ومعها أولادها بسبب ضيق الحال وكثرة الخلافات قبل ذلك. اشترى الشاب سيارة ربع نقل (موديل قديم) وبها بعض الإصلاحات، تناسب ما كان معه من المال، مر شهر كامل والزوج يعمل ويجتهد، الزوجة أسلوبها قد تغير عليه ولبست شخصية صاحبة الفضل، بالإضافة إلى أن أهل الزوجة يتدخلون في كل شيء،

كم رزقُ زوجك اليوم؟ كم أعطاك؟ كم وفر لك من ثمن الذهب؟ نشبت الخلافات والتراشق بالألفاظ حتى غضبت الزوجة وتركت البيت مرةً أخرى وأخذت أولادها إلى بيت أبيها، لم ترجع البيت وكثرت الإهانات تجاه الزوج، وهنا يا سعيد في مرة ذهب الزوج لمصالحة زوجته وإذا بهم يقولون له "طلقها؛ هي لا تريدك" انفعل الزوج جدًا وأراد أن يذكرهم بالأطفال وألا سبب للطلاق فالأمور تبدو أفضل مما سبق و... ، لكنهم قد أصروا على الطلاق، شعر الزوج بأن زوجته بلا شخصية ولا عقل ولا فهم، تسير خلف أهلها في كل صغيرة وكبيرة وتفشي سر زوجها وتحكي لهم حياته وأيامه وأحواله، كرر المحاولة ليرد زوجته فأبت وأبوا جميعًا، ومع الانفعال والتراشق بالكلمات صفع الزوج زوجته على وجهها فإذا بأم زوجته تنهال ضربًا عليه بحذائها العتيق، ومن الجهة الأخرى ركله أخو زوجته في بطنه بقدمه حتى سقط على الأرض ينظر إلى عيون أطفاله في مهانته، قالوا له "سنشتكيك بالإيصال ونضعك في السجن لو لم تطلق وتعطنا المال ثمن الذهب وكل حقوقها" علم أنه لو فعل ذلك سيضطر إلى بيع السيارة، شعر بالانسحاق الرهيب، كان مسالمًا صالحًا، لكنه تحول لعدائي يرتكب جريمة قتل بشكل هيستيري دون أن ينظر للعواقب، بل يفكر كيف يرد الإهانة فقط، ثم في الجرائد كتبوا أن خسيسًا ونذلًا قتل زوجته وأمها وأصاب آخرين، بالفعل قُبض عليه وحكموا عليه بالإعدام شنقًا. لقد فكرت كثيرًا يا سعيد في أمر هذا الشاب، وأيقنت أن المجرم الحقيقي هي الزوجة الناشز غير المسئولة، والأهل الذين زادوا المشكلة ونفخوا في النار لتشتعل؛ إذ غاب عنهم العقل والحكمة، وحضرت عندهم روح العُنجهية والافتراء!

كثيرون هم الرجال الذين يتعرضون لمثل هذا ويطلقون زوجاتهم ويعيشون بأثر التجربة السيئة، ولك أن تتخيل يا سعيد، أنك تطلق امرأتك، وتأخذ معها الأطفال وهي راحلة عنك لتظل تنفق على الأطفال سنين عددًا وتبعث إليها المال وأجرة السكن، وتأخذ كل شيء لأنها أرادت الطلاق وتعبتَ أنت من المشاكل والخلافات، هل تريدني أن أتزوج عاهرات الفكر والعقل مثلهن، وتؤاخذني بأنني أصاحب عاهرة الجسد. يا سعيد، اعلم أن عاهرة الجسد أخف وطأةً وأهون من عاهرات العقل؛ عاهرة الجسد تُمتّعني وتعطيني اللذة وأتركها وأنصرف، عاهرات الفكر والعقل لو تزوجت منهن يدمرن حياتي وحياة أطفالي، سأكون مثل هذا الذي قتل وشنق وهو مظلوم في قانون الإنسانية، لذلك أنا أعتزل العالم يا سعيد، حتى الرجال منهم الكثيرون عواهر الفكر والعقل وتجدهم نجومًا ونُخَبًا يصلون لمناصب عالية، ويصفق لهم ويبرر لهم عواهر العقل والفكر الأقل منهم لتتسع دوائر العهر في كل شيء حولنا، ثم نعيش حياةً يا سعيد تجعلنا نتمنى لو كنا موتى أو حيوانات لا ندرك ولا نعقل!

– سعيد: تلك هي الحياة يا خالد، لعل هناك من الرجال والنساء أفضل مما ذكرت، المطلوب هو أن نبحث عن الأفضل والأجمل والأحسن دائمًا، ولولا وجود الشر والسوء يا خالد لما عرفنا قدر الضد الطيب الصالح. لا شك أن في الحياة عناءات كثيرة، والصبر عليها والسعي نحو كل فضيلة حتى ولو لم نصل أو نحقق نتيجةً جيدةً لأسباب حائلة، فوق إرادتنا لهُو قمة الفلاح، ثم عليك أن تتذكر دائمًا أن هناك عالمًا آخر دائم البقاء لا كدر فيه لمن صبر، أنا أكثر الناس تعبًا، وأشدهم حنينًا لمفقود واراه التراب.

وأكثرهم ضجرًا من الواقع المحيط كما ذكرت ولم أختلف معك في غالب ما ذكرت، لكني دائمًا أتصبر وأتصنع الصبر كي أصبر وأتعلم كيف أفعل، لعلني حين أنصحك الآن وأنصح نفسي بما كنت أريده من النصح ولم أجد من ينصحني بوقت احتياجي للنصيحة؛ هكذا تكون ثمرة الصداقة بين الذوات الشبيهة لبعضها، فهناك من النساء والزيجات ما ذكرت، وهناك من الرجال الأغبياء أيضًا كما ذكرت. امرأة تأخذ منك كل شيء ولا تعطيك أي شيء، مالًا وجنسًا وحبًا وسعيًا وكل شيء حتى تتركك هيكلًا عظميًا من الداخل، بقايا إنسان، وهناك من الرجال نحو ذلك، ولكن مالنا ومال هؤلاء؟! فلنكن نحن الأفضل ونبحث عمن يشبهنا يا صديقي.

– خالد: كلامك مريح وفيك ما يجعلني وكأني أتنزه وسط حديقة غنَّاء يا سعيد، ولا يمنع أننا اختلفنا في شيء ما ولا بد، وسنلتقي كثيرًا يا صديقي الجميل في الفترة القادمة؛ فعندي ما أريد الحديث فيه معك.

تمت

عن المؤلف

محمد إسماعيل شريف، مواليد محافظة الدقهلية ١٩٨٣م
حاصل على معهد المساحة بالزقازيق، ودبلومة المساحة المتكاملة من مؤسسة فكر للتدريب بالزقازيق، ومعهد القراءات بالمنصورة، وإجازة في رواية حفص عن عاصم، كما درس العلوم الشرعية بالمعهد.
يعمل بمجال الهندسة المساحية كمساح عام في شركات المقاولات والهندسة.
صدر له:
رواية "وسقطت أوراق الكافور" عام ٢٠١٧.
مجموعة قصصية بعنوان "مشاعر شتاء" عام ٢٠١٨.
له رواية "عزبة الخواجة" قيد النشر وأعمال روائية أخرى قيد الكتابة، وقصص منفردة في كتب مجمعة، وقصص ومقالات في بعض المواقع الإلكترونية وجرائد ومجلات، وله أكثر من لقاء تلفزيوني حول كتاباته.